مسابقة نجلاء محمود مخزم
الدورة السادسة

الفائـــزون

العدد السادس

الكتاب : الفائزون
يصدر عن : مسابقة
نجلاء محمود محرم
للقصة القصيرة
اللوحة والغلاف :
للفنان / احمد الجناينى
إيداع : 2006 / 17233
دولى : 977-374-209-1

تقريــر لجنة التحكيم النهائية

د. مدحت الجيار

حين يطلع القارئ على هذه المجموعة من القصص القصير يشعر بالأمل فى مستقبل القصة القصيرة فى العالم العربى، بل تعــود إليــه الطمأنينة ويجد نفسه وقد حلمت مع هذه القصــص بعــوالم تنهــار، وعوالم تأتى، وأحلام تتحقق وأخرى تفر بين السطور.

ويرى الناقد أن كتابات مثل هذه فاتحة لكتابة جديدة تحترم العقــل واللغة والأساليب العربية فى الكتابة الجديدة. إذ على الرغم من أنهــا محصلة لمؤلفين مختلفى الأعمار، ومختلفــى التوجهــات السياســية والفنية، فإنها فى الوقت نفسه تنتمى لروح عصرى واحــد، متفــتح، وشديد البأس فى آن واحد.

والجميع يمتح من تجاربه الخاصة، ويستعين فى تشكيلها بعناصر من التراث الإنسانى، والدينى منه بخاصة. ربما يتسلق الكاتب ســور التراث ليهرب من المباشرة اللغوية، ويجد تسرية عن قسوة الحيــاة، بل ليرى استمرارا لما فات فيما هو موجود. وبالتالى كان أصــحاب الرؤية السياسية يعودون إلى التراث الدينى يستدرونه ليسقطوا علــى أنفسهم وعلى واقعهم؛ المرارة والحزن والإشفاق من استمرار الواقع كما هو. واستدعت بعض هذه القصص ملامح الخوف من تفاصــيل متنوعة من الحكايات الشعبية والخرافية لتقتل الخوف بداخل الطفولة وتعيد صياغة لسان الجدة والشيخ والمربية وقد خلقــوا حالــة مــن التحذير المقلق من الظلام والفضاء والانخراط فى الحياة حتى تظلم.

ونشم روائح القصة المصرية والعربية، وتفاصيل حياتها فى هـذه القصص سواء فى الصعيد أم فى الوجه البحـرى أو ربـوع أرض العرب. بل نحس ببعض تفاصيل الحياة البدوية تزحف على عـوالم هذه القصص لتعطيها تواصلا مع ذات المبدع والمتلقى.

وتطرقت بعض القصص إلى عوالم حديثة جدا، حيث الإنترنـت، وحيث الجدار العازل، والشطرنج، وورق الحائط،....إلخ.

والواضح أن هؤلاء القصاصـين يهتمـون بالتفاصـيل وباللغـة الشعرية التى تمتص الوجع، وتكتب القصة فى كثافة لا تكتفـى بهـا على السطور، بل ما بين السطور وبين تضاعيف المجاز. إلا أنها لم تصل إلى حد الغموض أبدا. ومن العجيب أن شفافية اللغة الشـعرية عند الجميع أضفت جمالا لغويا وسرديا محببا إلى القـارئ العربـى الذى تعود على خيال ألف ليلة وليلة، وحكايات الجـدة، وتهويمـات الأطفال والكبار– والمسنين حين يكون السرد متعة، وتلقيـه متعـة مزدوجة. ولو استشهدنا باقتباسات من هذه القصص لكتبنا نصف عدد صفحات هذه القصص.

والقصص النفسى يأخذ وضعا مهما فى هذه المجموعـة، أعنـى القصص التى تهدف إلى استكناه النفس وتسـريب طاقـات الخـوف والملل واليأس عن طريق الكتابة واللغة المجازية. ويكفى مثلا كتابة متسابقة لا تتجاوز أربعة عشر عاما تكتب عن "أوركسترا ليلة قمراء" لن تخرج من هذه القصة حتى تفرغ شحنات تعبك وغضبك ويـروق بالك وتشف نفسك.

إننا أمام جيل جديد من كتاب القصة، لم يهبط إلى فهم حداثى معقد أو غامض، بل رأى الحداثة فى جـودة السـرد واللغـة، ووضـوح الرسالة أوالهدف من وراء السرد. الجميع يكتب برؤية حداثية تتتبـع خطى السردية المعاصرة دون أن تدخل فى دوائـر مغلقـة وتتـرك النص ولم يصل إليك شئ. هم جيل من القصـص الجديـد سـوف تباركهم أقلام النقاد، لأنها – بالفعـل – مجموعـة مـن القصـص المعجب، المكتوب بعناية ورغبة فى التجديد والتحديث.

وأشعر كما سيشعر غيرى، أننا أمام قوى سردية مهمة مثقفة لا لمجرد الكتابة بل من أجل المشاركة فى الحياة المصرية والعربية والعالمية. ويعز على من يرتب هذه المجموعة أن يرى الفارق بين المستويات قليل، لكنها — فى النهاية — ثلاثة مستويات فى كل مستوى تتكرر كل الملاحظات النقدية السابقة، مما يجعلنا نشعر باعتزاز لكل من تَردُ له قصة فى هذه المجموعة. ولولا الملامة لوضعتهم جميعا فى صف واحد لا نفرق فيه بين من يأتى أولا أو أخيرا — فقط — داخل الصف.

ولا نتحدث عن فكرة نجلاء محرم القاصة الروائية، والتى تعيش مع الكتابة الجديدة والجيدة، وتشجع الكاتبين والكاتبات بهذه المسابقة، ومطبوعاتها السنوية. وهى مثل نتمنى — نحن النقاد — أن يتكرر فى محافظات أخرى. لأن تشجيع الكتاب — من قديم وحتى الآن — يخرج فى المقام الأول من الكاتبين والكاتبات لأنهم يعرفون مدى الجهد والمعاناة والشقاء — أحيانا — لمن يمارس الكتابة ويتفرغ ذهنه للأدب.

ولاشك أن هذه الإطلالة دالة على جودة التجربة، التى تحتاج المتابعة.

تقريــر لجنة التحكيم النهائية

د. مصطفى عبد الغنى

هذه مبادرة – فيما نعلم – غير مسبوقة من الكاتبة والمبدعة نجلاء محمود محرم.. فهى محاولة جادة لرصد الاعمال الجيـدة علـى مستوي القصة القصيرة ، وهى محاولة سعت صاحبتها الى اكتشـاف المواهب الجادة المغمورة فى قاع الواقع العربى المؤسى فى بـدايات الالفية الثالثة ..

ومن هنا ، تظل هذه المحاولة- اليتيمة – قائمـة ، تمـنح مـن يستحق المنح ، وتمنع عمن لايستحق مالايستحق ، ومن ثـم ، فـان ثنائية المنح والمنع جاءت على مسـتوي المحاولـة ، اذ تعـرض القصص للجنة تحكيم اولية ثم لجنة تحكيم نهائية ؛ ويتم هذا كلـه – وهذا مهم جدا – فى مناخ لايعرف المجاملة ولا الشللية بأية حال..

ولهذا ،فان هذه المحاولة ، كما نرى ، تسعى لكشـف المواهـب الجادة فى هذا اليم الممتد البعيد

ومن هذا المنطلق سعينا ، لتقديم بعض هذه القصص التى تقدمت للجائزة ، وخضعت لتحكيم قاس وعادل ومحايد تماما

*

منذ البداية نلاحظ انه رغم الغموض المشوب به القص هنا.. فان الدلالة تمنح دلالات مهمه بغض النظر عن سلبياتها او ايجابياتها.. اننا امام سياق جاد فى القص يترجم اليه الواقع العربى المعاصر، فى حين ينتمى لاحد ابنائه ، مما يشير الى (الشهادة) اكثر من (غوايـة) الكتابة بأى حال ..

هذا هو الانطباع الاول لهذه القصص التى بين ايدينا ..

وبادىء ذى بدء فان القص هنا لاينتمى – بالضرورة – الى السياق الداخلى وحسب، فنقرأ قصص اقرب الى (الحواديت) المعروفة وانما نحن امام بنية تنتمى الى السياق الخارجى الام الذى يتمثل فى هذه الفترة التاريخية المؤسية التى نحياها.. انها بدايات زمنيةلاتعود الى الالفية الثالثة بالضرورة، بقدر ما تعود الى(بانوراما) الحاضر الذى يهبط الى الوراء(الماضى) ثم يصعد الى الامام (المستقبل) ، ومن ثم ، فان الاحالة الى الحاضر لاتظل فى موقف استاتيكى ، وانما فى موقف دال أشد الدلالة سواء بالسلب او الايجاب..

انها المرجعية بالماضى او الاحالة للمستقبل انطلاقا من الحاضر (= المركز) ..

هذا ما نلاحظه من النص القصصى لدينا بشكل عام

وهو اهم الملاحظات التى يدفعنا اليه هذا القص الجديد، حيث تبدو سمة التماهي بين الماضي والحاضر من المنطلق الجارى ، وبالتبعية ، البحث عن المستقبل انطلاقا من المرجعية او الاحالة ..

انها الحالة التى تمنحنا التعبير المتسق بين النص المكتوب والنصى المتماهى، النص المطمور فى قيد الذات والظاهر في فضاء العام ، وفى كل الحالات فان المرجعيات تحيلنا الى هذا الواقع المنبثق (قسرا) من حياتنا العاصر بكل الوان الطيف فيها..

انه تماهى يبدو اشد الوضوح فى (الجدار– تجليات الذى ليس انا – تفاصيل وجع..– اللعبة.. الخ) حيث يتضح هذا التماهى ليس فى الهوية وحسب وإنما أيضا فى الأزمنة او الضمائر حيث يخلف غموضا يتسق مع النص مما يحيلنا الى اشارات قد تبدو غير منبثقة من الواقع..

غير ان إعادة النظر فى القص ، والحديث منه بشكل خاص يرينا هنا أننا أمام إشارات سلبية فى الغالب، لكنها يمكن ان تومض فى الشتات البعيد للقص..

إنه التماهى الذى يعكس – على المستوي السلبي – الغموض فـــى هذه العوالم أو الضمائر، ثم إنه التمــاهى الــذى يعكــس – علـــى المستوى الايجابي – روح العصر كما تعيشها الامـــة العربيـــة الان كخليط من الجد والهزل ، والنوم والصحو، والتنبه واليقظـــة.. الـــى آخر هذه الثنائية التى تعكس واقع الوطن العربى اليوم

ثم انها – كما نرى – تنعكس فى القص الذى بين ايدينا .. وهـــو قص لايتمهل عند قطر بعينه، وانما يمتد الى كل الاقطار العربية

ان القاص هنا يسعى لتأكيد خطاب، نقول (يسعى)، وحين ينتهـــى منه نكتشف ان الخطاب يغلب عليه سمة الغموض الذى يحيلنا الـــى (حالة) يجب التنبه عندها الان، ليس من حيـــث المرجعيـــة العامـــة وحسب ، وانما الى المرجعية الفكرية للقاص (الذى هو اليوم ضـــمير الانسان العربى فى عالمه المضطرب) ..

وهنا نكتشف ان التماهى (وهو مفروض بالقطع) يسلمنا الى حالة من الضياع..

او حالة من الضياع نجدها فى نسيج القص وليس فى (الخطـــاب) الذى يقدم بالضرورة ..

يصبح الضمير – على سبيل المثال – غائرا فى الغموض غابـــا فى الواقع خاصة، حين نحاول رصد ضمائر المتكلم والمخاطب فـــى القص فى الاطار الواسع، فنحسب انها تقدم الينا شيئا مفهوما، غيـــر ان القراءة المتأنية تحيلنا الى حالة من غياب الوعى الذى يتمثل فـــى تفتيت الحدث أو نسخ الضمائر بشـــكل لايعـــوزه الغيـــاب للـــوعى الكامل..

ان غياب الوعى هنا – نكرر– نعثر عليه ليس فـــى (الخطـــاب) القصصى بقدر ما نعثر عليه فـــى (آليـــات) الكتابـــة وعناصـــرها التقليدية..

إننا نغادر التماهى – كما لاحظنا – الى الضياع القاســـى الـــذى نعيشه جميعا كل فرد فى موقعه، وكل عقل فى مبتغاه، ثم كل (قاص) فيمايسعى اليه هنا

إنه (الشكل) والدلالة فى آن واحد

هذا كله يحيلنا – ولن نكل من التكرار – الى الواقع المؤسى..
ويكفى ان نعيد النظر مرة اخرى للقصص التى تنشر فى دورياتنا او التى تبعثر وتنثر فى مدوناتنا والبلوجرز فى الفضاء التخيلى لندرك عمق المأساة، مأساة هذا المبدع الكاتب الذى يعبر – أو الذى يجب – أن يعبر عن الواقع المؤسى فنكتشف أنه احد أدواته وليس أحد المحركات الفاعلة فى الواقع العربى..
فإذا جاوزنا التماهى الغريب والضياع المؤلم لوصلنا إلى عنصر ثالث ، هو

عنصر اللغموض ..

ان القاص هنا يبدو عبر أدواته غامضا أشد الغموض. إن القراءة للقصص ترينا أننا أمام واقعا يعكس هذه (الحالة) ..
إن القراءة لهذا النص أو ذاك لاتمنح بالضرورة الوضوح بقدر ما تمنح هذه الغلالة من الرموز النائية .. معنى هذا ان القراءة المتأنية لنص لاتمنح الدلالة الفنية بقدر ما تمنح الدلالة الغائمة ..
والقراءة المتأنية لاتمنح (خطابا) موازيا للواقع بقدر ما تمنح سمات عامة لقاص يسعى للتعبير عن نفسه فى عوالم متباينة، لاينفصل عنها وإنما يتصل بكل مافيها من سلبيات ، ومن ثم ، يتحول من راصد أو معبر إلى أداة او سمة مؤكدة هذه الحال .. وهو مايعود بنا إلى العناصر السابقة من التماهى والضياع لنصل عبر الملاحظات الكثيرة المتشابهة إلى قراءات متباينة لقاص واحد ..
نستطيع إذن – وياللغرابة – أن نتمهل عند قصة او اثنتين لنفقد حماسينا فى العثور على جديد فى عديد من القصص المتوالية ، اللهم إلا إذا آثرنا أن نعثر على ملامح هذه (الحالة) الديناميــة للكتاب ، وليس – بالضرورة (الخطاب) الذى يعبر عنه أو يقدم ..
معنى هذا ان الإمكانات المتباينة لهذا القاص أو ذاك تظل مرهونة بالتلقى القائم لهذا القارىء أو المتلقى مما يسهم فى السياق الاخير فى (منظومة) تعبر عن القاص فى هذا الزمان، فإذا هو يعبر عن (حالة) أكثر مما يقدم ما يقدم من (خطاب) عصرة لهذا الزمان العربى الردىء..

وإذا كان علينا أن نضيف إلى غياب القاص(النمــوذج) غيــاب المتلقى (النموذج) فى عصر الفضائيات والعالم الافتراضــى .. الــخ كان علينا أن نؤكد أن (نسبية االقص) أصــبحت موازيــة (لنســبية التلقى) ومن ثم غياب الأنساق الواضحة القائمة التأويليــة، أو التــى يجب أن تقوم بين القاص والمتلقى..

وإذن فنحن أمام قاص غائم وأمام متلقى غائب والأفضل أن نقول هنا إن المتلقى مثل الكاتب يعيشان فى مناخ واحد، ومن ثــم، فــإن البحث عن (نموذج) هنا أو هناك يصبح وهمًا فى عالم اليوم...

وهو هو حاصل هذا (الخطاب) الغامض – اذا جازلنا ان نطلــق عليه (الخطاب).. فالمتلقى لم يعد يتأثر وحسب بالمناخ الخارجى او الاحداث الداخلية بقدر ما يتأثر ويتوازى مع المبدع فــى الــداخل.. كلاهما أصبحا يعبران عن الواقع ويمثلانه

الاكثر من هذا ان القول بغموض (القص) فى طرفيــه: القــاص والقارىء يعنى انعكاس هذه الحالة الصعبة التى انتهــى الينــا فيــه تاريخنا، حتى اننا نتمهل عند قصة مثل (تجليات الــذى لــيس أنــا) أو(تفاصيل وجع على الانترنت) نجد اننا امام هذا الواقع الافتراضى الميئوس منه داخل النص وخارجه..

وإذا سلمنا بان هذا يسعى – بشكل ما – إلى تشكيل البنية المعرفية ...ىء بينن!، فمن الأجدى أن نقول، ونكرر، إن هذا يسعى لتأكيــد هذه البنية الدلالية المعاصرة التى ترتبط بالواقع، والتى – باضــرورة – تؤثر فى المتلقى سلبا وإيجابا وعبر التحليل لشخصــية (المتلقــى) نفسه وليس مايقدمه فقط..

إن ما نراه فى هذه القصص – وغيرها كثير – يعبر لنا عن (الخطاب) العام وليس بالضرورة (خطاب) القاص ..

ومن هنا ، كان لابد وان نتوقف عند هذا الواقع الذى نجده فــى القص وخارجه ..

إنه الواقع الذى ينسج خيوطه الصارخة العنيفة فى نسيج أيامنــا الأخيرة ..

وهو الواقع الذى يحاول هذا القص التعبير عنه به ..

تقريـر لجنة التحكيم الأولى

أحمد سامي خاطر

من نافلة القول أن نؤكد الآن على أهمية هذه الجائزة ، أو غيرها من الجوائز التي تعني في المقام الأول بالبحث والتنقيب والتقليب في تربة إبداعية جديدة لفن أدبي راسخ كالقصة – التي نحن بصـددها – في مسابقة نجلاء محرم لدورتها السادسة على التـوالي ، فالتسـابق والتنافس هما الحاجة نفسها ، هذه الحتميـة أو الضـرورة هـي أم الاختراع ، أي .. الابتكار والتجديد والإضافة ، ومن ثم البحث عـن أسلوب مختلف للرصد ثم للعرض .. تدفق حيوي لفكرة غير مبتذلـة تتحقق فيها أنساق جمالية في التشكيل والبناء ، وعبر معطيات النص القصصي من [لغـة السـرد – والحبـك – الفكـرة – والنسـق – والشخصية القصصية – الزمن – المكان] ، إضافة للتأصيل الفنـي والتاريخي والمعرفي ..

ذلك التأصيل الذي يعد بمثابة القاعدة الثقافية والتراثية والمعرفيـة والجمالية التي يفترض ألا يخلو منها أي عمل إبداعي ، ينطلـق ، أو يولد من رحمها النص الأدبي على إطلاق العموم ، ومن ثم القصـة بوصفها شريحة أو لمحة مجتمعية يمكن أن نأخذ في اعتبارنا مقـدار ما يمكن لها – كفن صعب ومستقل – أن تشتمل عليه مـن [فلسـفة رؤية – تشكيل لغوي – هندسة صياغة – أسلوب عرض الفكرة] .. إننا إذن أمام فن لاشك يحتاج منا لمزيد من التوفر والاحتشاد .

وليس هذا الاستهلال إلا تبياناً أحاول من خلاله أن أنتصر لفن القص ، الذي بات في وضعية متأخرة نوعاً عن باقي فنون الأدب ، ولا أشك كذلك أن أمانة جائزة نجلاء محرم للقصة ، - وبكل حرصها على هذا الفن النبيل - تعوّل عليكم كثيراً أنتم أصحاب الأقلام القصصية المتميزة ، أنتم المشاركون - ليس فقط في التسابق على الجائزة - ولكن كذلك في النهوض والعودة بهذا الفن للمكانة التي تليق به .

وبوصفي أضطلع إلي هذا المشهد القصصي من خلال المشاركات من مصر وخارجها ، أشعر بأننا قد اقتربنا بالفعل من تحقيق أهداف هذه المسابقة أو أي مسابقة جادة من شأنها أن تبحث ، ثم تقدم النموذج الأقرب إلي ما نطمح إليه بمراعاة شروط وقواعد الخصوصية والاستقلال للقصة ، ومن ثم نقدمه إلي القارئ ونحن فرحين مستبشرين .

<u>ومن بين الملاحظات التي دونتها بعد الانتهاء من التصفيات الأولية ما يلي :-</u>

- ضمت المشاركات عدداً قليلاً نسبياً من الأعمال القصصية التي استحقت البقاء للتصفيات النهائية وعددها ثلاثون مشاركة (أي ما يمثل ١١ % تقريباً من مجمل المشاركات) ، وقد قدرت هذه المشاركات بالنسب المئوية من الأعلى إلي الأدنى { ٩٠% [مشاركتان] - ٨٠,50 % [١١ مشاركة] - ٨٠% [١٧ مشاركة] .

- هناك عدد آخر من المشاركات استحق نسبة ٧٥,50 [٢١ مشاركة] ، وقد آثرت التنويه عن هذا لأمانة الجائزة لتوسيع نطاق وعمل لجنة التصفيات النهائية ، وإتاحة فرصة أكبر لهذه المشاركات إما بالفوز أو بالنشر داخل كتاب ((الفائزون)) ، أو مجلة ((تواصل)) ضمن متابعات ما بعد الجائزة .

- المشاركات من ٧٠% فيما أدني هي مشاركات طيبة ، احتوي العديد منها على خصائص وشروط الكتابة القصصية ، لكن ذلك لم يتعد الأطر التقليدية ، ولم يخترق المألوف ، وربما شابه عدد آخر

من المشاركات الوقوع في بعض السلبيات التي سبق وأن أدرجناها في تقارير لجنة التحكيم الأولي في دورات سابقة ، وهي تتصل بـ [تقليدية العرض – ضعف الفكرة – ركاكة الأسلوب – اللغة – أدوات الربط .. وهكذا]

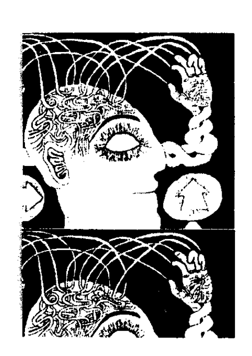
– أوصي بفتح باب (أقلام واعدة) (بمجلة تواصل) ليتم التواصل ومتابعة المواهب الصغيرة ، حيث لم تخل المشاركات الوارد لأمانة الجائزة في أي من دوراتها السابقة من تواصل هذه المواهب الجيدة جداً قياساً للفئة العمرية التي تكتب فيها [انظر المشاركة رقم (١١١)].

– لوحظ وجود كثير من الأشياء المشتركة بين أكثر من مشاركة .. هذا التشابه كان في [الاستهلال – الأسلوب – القاموس اللفظي والمفردات – .. حتى في وضع علامات التنصيص وتصويب الأخطاء [انظر المشاركات رقم (٧٢) ، (٨٥) ، (٩٠)] ..{ أتحفظ على هذه الملاحظة } .

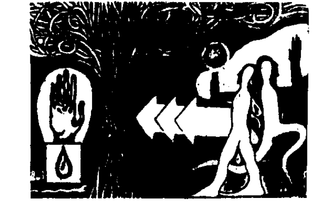
– المشاركة رقم (٣٢٩) سبق وأن شاركت في إحدى المسابقات الإلكترونية عام ٢٠٠٤ ، وحصلت على المركز الثالث عشر وتم نشرها بالكتاب التوثيقي للجائزة [على أي حال العمل جيد واستحق ٨٠,٥٠% ، والفصل لأمانة الجائزة] .

وأخيرا أتمني التوفيق للجميع وأبارك مقدماً للفائزين بجوائز نجلاء محرم للقصة لهذه الدورة وكل الدورات القادمة

والله الموفق



القصص الفائزة



المركز الأول

اللعبة

حسنى فاروق . مصر

وكان لا يُرى منه إلا الوجه، فى حين يرى هو ما لا نجرؤ نحن ولا آباؤنا على رؤيته، آخرُ من لُقّبَ بالكبير فى عموم الناحية، اللابد فى أغوار المقابر المستوية فى الثبات، المقتفى آثار المارقين وقطاع الطرق، الماهر فى التخفى وفى نفس الوقت الآتى فجأة من حيث لا يدرى أحد، القادر — والقدرة لله — على الإفصاح عن علامات خفية فى أجساد النساء، يتراقص جلد الوجه عند سماع سيرته، مئات الرؤوس تدلت فوق الصدر منذ قدومه إلى القرية خفية، تحمله إحدى الراقصات اللاتى يبرعن فى الرقص بقدم واحدة فوق الحبل وفوق صدور الرجال، كان الله فى عون وألبسه حلل التفرد، ووقاه شر دود الأرض ببركة دعاء أولئك النسوة اللاتى يكشفن عن رؤوسهن فى قرص الشتاء.

قالت أم رزق الداية نقلا عن رابطة الدايات فى عموم الزمام عن أمه: لا أعرف له أبا، سكننى منذ نعومة أظافره، هيجنى، أربكنى، قلب كيانى، فقيل لى عن شيخ بارع بإشارة من يده وإيماءة من رأسه يخرج العفريت من الفم حبوًا، مجرجرا وراءه أذيال الخيبة، ويتراقص الحجر فوق الماء تراقص الديك فى الزيت المغلى، أجلينى قبالته، وأنا أضع طرف جلبابى على أنفى رائحة البخور الغثة، وبعد إفاقة مفاجئة وبعد بسملة وحوقلة واستعاذة واستغفار وأدعية مبهمة

قال: لا ينفع معه السحر، مجبول على اللعبة، يعرف الملعوب له، والملعوب له، والملعوب فيه، عليك بالاغتسال سبع مرات إحداهن بالتراب، كان الله فى عونك وألهمك الصبر.

— أتخلص منه.

— لا تضع العقدة فى المنشار.

— افعلى ما يحلو لك وأنا غير مسئول.

— قالت وداد بائعة الخضار: وكانت أمه تحمله فوق رأسها فى قفة، تجوس به خلال السوق والدروب، المقاهى والمقابر، الأديرة والحوانيت، وحين يصرخ من الجوع تشخب له اللبن فى فمه من إحدى المعاز السارحة.

— وقالت أخرى: أرضعته كلبة بلقاء.

— وقال الأب عازر، أرضعته الحمير

أخبرتنا وكالات الأنباء فى ليلة سوداء أنها قالت: إنه الجيفة لا يكفيها أن تطفو فوق جلدة الماء لكنها ترمى برائحتها فى مغاور الصدور وفى تكوينات الدم والطين، وتبرع فى تخطى الرقاب المنيعة، وتطأ موطئا لا ينبغى لأحد من بعده.

وقالت العرافة: هو الذى يدعى العبط ويضع الأحجار مع البيض ويقول تفقس وحُجَّتُهُ: من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم، وإن زاد خرج عليهم واستحل رقابهم.

وقال نائب الدائرة فى جلسة عابرة: خذوا الحكمة من أفواه النواب، وليدلى كل بدلوه، هذا دلوى: ما الذى أجبركم على دخوله القرية؟ قلتم: ربما زج به أحد — شبع من لبن أمه حتى ابتلت عظامه — ليقلب علينا المائدة ويستبيح لنفسه القول والفعل، ويخطف من أيدينا كسرة الخبز وكوب الماء ويضع ذيل جلبابه بين أسنانه — هذا إن كان يرتدى شيئا — ويجرى ليختبئ فى أحد الشقوق كفأر، ويجوز أن يكون قد دُسَّ بيننا لإثارة الفتن والقلاقل — لأن الطينة تنقصها البلة — ذلك قولكم بأفواهكم، وما خفى كان أعظم، اسألوا العمدة كيف جاء، وكيف صار بهذا الطول؟!

قال العمدة: وجدناه ـــ اللهم احفظنا ـــ مكتوبا فى يوميات القريـــة، وفى حكايا الأجداد وعلـــى لســـان العـــارفين والعـــرافين والغجـــر والمتسولين وفى جراب الحاوى، وفى أعين الصغار التى لا تطـــرف فوق الأرصفة، وفى وجه الفتاة التى تنام خارج جلبابها عنوة.

هذا هو العمدة ، لم يضف جديدا، ليته وضع حذاءً قديما فى فمـــه وخدمنا بسكاته..

دعونا من ذلك، هناك شئ ما يجعله ينظر لنا من أعلى.

ـــ شئ طبيعى لأنه أكثر منا طولا.

ـــ هل نسيتم يا سادة أنه يعرض بنا ويشنع فى الساحات الدوليـــة والمقاهى ودور المضاربة وخانات التطبيع والزنازينـــ مُطلِقا لســـانه بما خرست عنه الألسنة، وأن فى جعبته مايجعل الواحد منا يغمـــض عينيه ويدفن رأسه فى التراب ويتوسل إلى الأرض أن تنشق وتبلعه، ومن كان فى رأسه جرح فليتحسسه بيده ويكبسه بالطين، وإذا كـــان الأمر كذلك فلماذا تعنفون أنفسكم وتتظاهرون بالغيرة والـــرفض، أم أنه تمرس على دور ما فى أحد الأفلام الهابطة.

ـــ ليس هذا وقتا للهزار.

قال أحد الخفراء: إذا كان المتحدث مجنونا، فالســـاكت فالســـامع فالنائم على بطنه عاقل، وإذا كنتم أنتم العقلاء فأطلقوا أصابعكم فـــى وجهه كالسهم، وقولوا فى ثبات وثقة: أنت فعلت كذا وكذا، إيـــاك أن تتحاذق فى طاولة اللعب، أترك اللعبة، اللعبة ليست لعبك، محظـــور أن تمد يدك، لا نلاعبك ولا تلاعبنا، حكام اللعبة المخلصون قد أباحوا رفضك، محظور أن تمشى أن تتحرك، أن تبصر، أن تأكل، أخـــرج منها فإنك رجيم.

قالت العرافة: اضربوا الرأس فى الرأس، واجعلـــوا الشـــئ فـــى الشئ، يتحرك الشئ فى الشئ، واضربوا طريقا فى الصـــدر تصـــلوا إلى الرقبة وبعدها.....

قال مهزار صاحب الألف قرار: بالتأنى والترتيب تبرك الدجاجـــة فوق الذيل.

وقال شاعر العامية: "القدم بتدق فى صدرنا ــ نكحكح لما العضم ينقح". من قال إن بحوزته ما يجعلنا نطأطئ رؤوسنا؟ هو الذى تفحص الوجوه بطريقة المحنك المجرب ومشط لحانا بأصابعه، وحدثنا وأفاض فصدقنا دون أن نفهم شيئا مما قال، لم نرتق إلى فكره فنتدبر، ولم نعتلِ قاربه فنحذر ولم... ولم.

وقال الشحاذ: وماذا يقول لنا سوى تقارير الدماء؟ والأقدام التى ترفس فى حبال المشانق، ومصادرة الخوازيق.

قال أحد المخبرين المقربين: أظنه صار حاويا يجمع حصى الأرض ويرجم به العصافير فتصير بوما، غربانا، تصريحات كاذبة.

حدثتنا الإذاعة أنها قالت: أصابته لوثة فى أواخر أيامه، لم يسعد معه دواء المحنكين ولا حكمة المتفلسفين، صار يحدث جلبابه الذى يلوح به يمنة ويسرة، غدا معروفا بهيئته، برائحته، بكلامه، إذا استدار بوجهه قبحته، وإذا نأى بجانبه أو أعرض بقفاه أبعدته بركلة من قدمك فولى مدبرا وقد أخرج لك لسانه وهو يقول: موتوا بغيظكم، أنا المسمار وأنتم الفقاقيع، سأبقى واقفا أرونى قوتكم.. هه.. هه.. ومن ليس له ذراع فليشتر له ذراعا من السوق.

قال الشحاذ: قطرة الماء تثقب الحجر. ومازالت الإذاعة تحدثنا قائلة: يصفع أقفاء الواقفين فى سكينة، يخطف عمائمهم ويدهكها بقدمه فى الوحل، يخرج لسانه للمارين والمتحدثين فى التلفاز والمتحجرين فوق صفحات الجرائد، يتنحنح ويدق الأرض بعصاه، دقة، دقتين، ثلاث، يقول ألا فاسمعوا، سأخبركم أمرا خطيرا، انظروا ناحيتى هل وجهى قبيح إلى هذه الدرجة، إن الله لا ينظر إلى ألوانكم، فقط أعيرونى انتباهكم وخبئوا وجوهكم بأحذيتكم، سنوات طويلة وأنا أسمع لكم، جاءت اللحظة التى يجب أن تسمعوا لى طوعا أو كرها "لا أقول الذى يريدون رأيى....ثابت لا أرى من الحق بيعة" ولما وجد منهم إعراضا ونفورا هشهم بعصاه محاولا إيقافهم فى آذانهم الواحد تلو الاخر: الجمل طلع النخلة.. هه.. هه، كيف ومتى، ناس مجانين يتظاهرون بالحذق والحذلقة، لماذا لم يبحثوا عن شئ ينفعهم بدلا من القيل والقال عن خلق الله، هل رأوه يطلع النخلة أم أنه حكى

هو لهم، إن كان فعل أحاطنى علما، لم يخبئ عنى شيئا قــط، لا لا.. يريدون أن يشوهوا صورته ويختلقوا عنه الأكاذيب، لا لا، لأنــه لا يحظى بالدُّربَة وفنيات المراوغة والخداع يريدون إقصاءه، جملى لــم يترمرس على ألاعيبهم وقوانينهم، ولم ينم ليلته مغمضا عينا ومطلقــا الأخرى كذئب، رغم أنهما لم يبلغا حتى شراسة الفأر، ولــم يحــرك رأسه كحية لتخدير فريستها، ولم ينفث السم فى فى أخيه أو حتى فى أفواه القادمين نحوه بأحذيتهم، ولم يتقرفص بين يدى جنية البئر حتــى تلقنه تفاصيل الخروج على أو انتهاك مذاهب الغيــر، ورغــم ذلــك وحتى لا تشفى غلتهم، وقد اقترب من أذن الجمــل غيــر المرئــى، هامسا: لتمسح أقدامك بالأرض أيها الجمل، وخذ نفسا تلو نفس، وتقدم فى حذر المحترفين خطوة خطوة، "تاتا خطى العتبة"، بالتأنى وإحكام الجملة يركب الجمل النخلة، كن شجاعا مثلى، اعقلها وتوكل، عينــاك إلى الأمام وذيلك فى فمك، بينك وبين القمة قاب ذراع أو أدنى، وإن استشعرت منهم خيانة أو سابّوك، أو رموك بنكات ســافرة، فاقــذف وجوههم بحجر فى إثر حجر، ومقعد فى إثر مقعــد، وإن لــم تجــد فبرجلك، بذيلك، برأسك، وإن فعلت ــ وليتك تفعل ــ سأهبك جلبابى وعصاى مخصلة من شعرى المسترسل حتى كاحلى، والرأس إذا وقع على الرأس قالت: طق.

قال التربى: الرجل فى المقابر، يحاول أن يقرأ فلا يقــدر، يقفــز كالقط، يعدو قائلا: "فرفور يا فرفور.. وجهك كالح يا فرفور.. رجلك كما رجل التور يا فرفور.. بطنك قبر يا فرفور.. بلع كل القبور يــا فرفور"، أسند ظهره إلى أحد المقابر، يلتقط أنفاســه، يحفــر بيديــه، يخرج بعض الأطفال حديثى الولادة، يجلسهم قبالته، ثم يروغ علــيهم ضربا بجلبابه قائلا: اقرؤوا يا أولاد الكلاب، هل كان آباؤكم رجــال سوء أم كانت أمهاتكم بغايا، هل ذقتم ركلات المتسلقين والمخبــرين والجبناء، أنا ذقت. هل صارعتم القطط علــى عظمــة عفنــة؟ أنــا صارعت.هل رفستم بأقدامكم فى حبال المشانق؟ أنا رفست.هل.. أنا.

قال الشحاذ: ليس به سفاهة أو جنة، إنما ادعى ذلك ليتهرب مــن أفعاله وجرائمه، القانون واضح وصريح فى هــذه النقطــة "تســقط

العقوبة إذا اعتراه أو ادعى خبلا"، انظروا إليه لا تخدعكم ملابسه، انظروا إلى عينيه توقنوا صحة كلامى، اللهم هل بلغت... وقال شاعر العامية: " القدم بتدق فى صدرنا.. نكحكح لما العضم ينقح"

قيل والمصدر غير معروف: ماتت القرية، وصارت قبرا، وبات كل واحد يُعْرف بعصا تخرم ظهره، أظن مكتوبا عليها (غير معروف الهوية)، هذا قبر الفيلسوف الذى أقسم بكل الأديان السماوية وغير السماوية أن من يتفننون فى إحكام ربطات العنق هم أنفسهم صناع المشانق، وهذا قبر الراقصة الواعدة البارعة فى الرقص بقدم واحدة، وهذا قبر السياسى "اللهلوب"، الفنان الموهوب، شارب الماء بغير كوب الذى قال: بالسياسة والتغابى تبرع فى فن الحرابى، هه..هه، وهذا قبر... وهذا قبر.

وأحكم الصمت قبضته، ماذا بقى للعرافين والمخبرين والضالة والمتسولين أن يقولوه، والتهمة ثابتة، بالصوت والصورة، باللحم والدم، والمؤثرات، مقاسة ومحبوكة ولا شهود، أو شهود ولا دليل، ولا ديك ينوح عند الفجر، ولا دجاجة فى تبنها ترقد، ولا.. ولا..، ويقول شاعر العامية: "القدم بتدق فى صدرنا .. نكحكح لما العضم ينقح"، ويقول جدى: الحجر فى الرأس مَنْ فجر، ومن كان نائما يضرب وجهه بحفنة ماء، ومن لم يجد يضرب رأسه فى الحائط، ومن لم يجد هذا ولا ذاك فلينم ولا يغضب إذا طفا فوق الماء كجيفة.

ربما يسأل أحد: كم مرة ماتت القرية؟ لكن أحدا لم يسأل: أين الرجل؟!

حدثنا المذيع اللامع فى التلفاز الجامع نقلا عن أقرب المقربين إلى الرجل أنه قال: دخل الرجل إلى القرية خفية، تحمله إحدى الراقصات ذوات الألف قدم، فقرأ عليها ما قرأ، فنامت ثم ماتت، كيف؟! لم يصرح المصدر عن السبب مراعاة لأصول الذوق الدولى وتخى الحذر.

قال شيخ الطريقة: بالحيلة وثراء الجعبة تتقن فن اللعبة. واسمع يا من لا تسمع.

تجليات الذي ليس أنا

عامر بخوش أحمد . الجزائر

كنت متأخرا جدا في اكتساب هواية لعبة الشطرنج، بعد سن الثلاثين، نعم بعد سن الثلاثين، يلقى عليك الماضي ظلالا، تسرق بعض ما يحيط بك من نور، وتتصدى للأشعة التي كانت تغمر قلبك فتبهره ويتسع.. يتسع ليحوي العالم، فيتجاوزه بعد ذلك بالإشعاع. ثلاثون سنة مرت من عمر لا أعلم منتهاه، ورقعة الشطرنج هي هي، اللعبة ليست هي، الوقت ليس هو، وأنا لا أدري إن كنت هو! هل يسع المرء أن يُشفى من ذاكرته، ويلغي ماضيه؟ لعبة الشطرنج امتحان صعب لكل ما كنت أدعيه.

كيفت قوانين اللعبة مع ما كنت أراه صحيحا في الحياة، تذكرت حكمة كان قد أودع سرها في جوانحي معلم كنت أحبه: لا تتعامل مع الأشياء دائما بالصح والخطأ، لا تنس ما هو حتمي، كيِّفه أو تكيف معه لصالحك دائما. الحتميات والأشياء الأخرى سر حياتي. الثلاثون حتمية، الماضي حمل ثقيل من الظلال والذكريات، الواقع أمر مهول مفتوح للكثير من التأويل والقراءات. شكلت تصورا خاصا لهذه الهواية، يقوم على كونها تدريبا على الحرب مأمون العواقب، فصرت أرتب القطع حسب ما يقتضيه الواقع والتاريخ العربي كذلك، من تحديد للمهام في حالة حرب تخوضها الدولة أو الأمة وحتى القبيلة في معظم الأحيان. واتخذت لنفسي قاعدة لم أحد عنها في أي

دور لعبته وهى: "ألا أهاجم بالملكة خوفا عليها من الموت، اعتقـادا أنه ليس نصرا ذلك الذى تموت لأجله النساء وينعم به الرجال" طبقـا لما أمدتنى به كتب المؤرخين وقصائد الشعراء فى وصف الحروب.
اتخذت أيضا أسماء للقطع متداولة فى المغرب العربى، أقترب فى دلالتها مما هو شائع فى العربيةمن مصـطلحات السياسـيين حـين يتكلمون عن الحرب مثلا بقولهم، "إن الحـرب يشـعلها المجـانين"، تبنيتها وجرت على لسانى، كما توغلت فى وجدانى بسرعة، وعليـه فالرخ يسمى القلعة والفيل يسمى المجنون.. ولا خلاف علـى اسـم "الملك" كما وصفه التاريخ، وكما هو معروف عندنا نحـن العـرب، فالحاكم فينا بأى نظام كان ملك على كل حال، معَزَزًا تاجـه دومـا بالجنود والخيول.

هناك اعتبار آخر يجدر ألا أنساه وأنا أسرد عليكم تفاثيـل قصـة رجل عشق الشطرنج بعد سن الثلاثين.. نعم بعد سن الثلاثين، وهـو أن حروبنا العربية فى معظمها ــ الماضية منها والراهنـة وحتـى الآتية طبقا لما يراه الحاكم ضرورة لاستمرار النظام ــ كانـت لهـا غاية واحدة ووحيدة هى: المحافظة على الملك ولو بأغلى الأثمـان. وهكذا وجدتنى أوافق على الإطار العام لقواعد اللعبة التى علمنيها فى اليوم الأول ــ باختصار المتخصصين ــ أحد المحنكين وهى: "لـن تحرز النصر إلا ببقاء الملك ولو كان وحده على الرقعة بعد سـقوط كل القطع. الملك حى فأنت منتصر". الشطرنج لعبة ابتكرها أكاسـرة فارس وملوكها، يُعَلِّمُون بها الرعية كيف تموت بشرف ليبقوا بعـدها أحياء يسجلون التاريخ ويمدحهم الشعراء.

كنت أبدأ دائما بإفسـاح الطريـق للمجنـون، لأجـل المنـاورة والاستفزاز وإذكاء نار حرب شعواء تتجاوز الصبر والتريث وكـل الخطوط الحمراء، فلا صلح ولا تصالح بعدها. لى بعض العذر فـى ذلك فأنا من أمة تأخذ حكمتها من أفواه المجانين، والنتيجة حتما قاتل وقتيل. لا بأس إن سقط المجنون بعد هذه المهمة التى يسميها العقلاء من الناس ــ ولا أظنهم يهوون الشطرنج أبدا ــ: "فشـلا دبلوماسـيا

ذريعا". يمكن تعويض ذلك المجنون بجندى أو اثنين يسمران فى ثغر محتمل الخطورة.

ثم أخرج الحصان للهجوم فهو أسرع فى الكر والفر كما قرأت فى كتب التاريخ، بالإضافة إلى هذا وجدتنى مرغما على موافقة السياسة العربية فى الحروب: الجنود فى الأمام.. القادة فى الـوراء. الجنـود للموت.. القادة لشئ آخر. ولم أوافق أبدا أبدا على دور الملكـة فـى قواعد اللعبة، رغم مرونتها فى الحركة وقدرتها على ضـرب عـدة جبهات فى كل الاتجاهات كأحدث طائرة فى أحدث سلاح جو. كثيرا ما كان الخصم يجعلنى ــ بواسطة تلك الملكة الخشبية ــ فى موقـف دفاعى ضعيف لا أتخلص منه إلا بشق الأنفـس. فـإذا مـا دفعـت بالمجنونين والحصانين إلى ساحة الوغى، وأفرغت معظـم خانـات الصف الأول، لجأت إلى تحصين الملك بإحـدى القلعتـين والملكـة بالأخرى كما هو شائع فى التاريخ، مع بعـض التغييـر باسـتحداث الحفر والملاجئ الأرضية فى الحروب الحديثة.

كان هذا المنطق الذى لم أفصح عنه، لكننى أطبقه بعناية وحـذر، يجعل الخصم يحتار كثيرا فى تصنيفى وكذلك المتفرجين فى بعـض الأحيان ما بين دائرة الحمقى أو دائرة العباقرة. نعم أؤمن بهذا، هناك خيط رفيع بين العبقرية والغباء. إنه ثلاثون سنة مرت دون أن أفطن إلى هذه اللعبة المسلية. كان هذا المنطق الذى ألزمت نفسى باتباعـه يدفعنى إلى صعوبات ومآزق تؤدى بى إلى مشارف الهزيمة، نظـرا لمرونة قطع الخصم الخطيرة فى الانتقال والمناورة وتمركز قطعـى الهامة لحراسة الذات الملكية، وتكليف الجنود البسـطاء ــ الـذين لا يتحركون إلا ببطء وإلى الأمام دائما ــ بالهجوم المستمر أى المـوت المستمر. هذا كله جعلنى لا أستطيع أن أربح معركة واحدة فى ظرف وجيز، وإن كنت لم أنهزم أبدا!

مرت سنين والهواية تتجذر والانتصارات تتلاحق، ولا داعـى ــ لمن يهمه أمر هذا الرجل الغريب الذى هو أنـا ــ أن أكـرر مـرة أخرى أننى لم أنهزم أبدا، حتى انْتُخِبْتُ بطلا عربيا مرشحا لخـوض مباراة على مستوى العالم، العالم كله، شرقه وغربه شماله وجنوبـه،

لا أدرى من أى جهة من هذه الجهات يبدأ ولكننى أذكر أننى سمعت متكلما جهوريا مثقلا بما ورثه عن مجتمع الطاعة من وقار ورياء يقول فى إحدى محاضراته، إن العالم يبدأ من الشرق وتنسب باقى الجهات إلى العالم بحسب قربها من الشمس!

فرضت على أهمية المستوى الاطلاع المفصل والدقيق على سير حياة الخصم الذى سأباريه، ومحاولة استقراء الأزقة العميقة فى ذاكرته علنى أجد فى أحد منعطفاتها اهتراء ينذر بالدمار. لقد قال لى ذلك المعلم الذى كنت أحبه، إن الذاكرة والمدينة توأم لهندسة واحدة.

ما عاد الذين لاعبتهم يغروننى بالمنافسة والاستنفار لسحقهم، فأنا بطل عربى لا يجارينى فيما أنا فيه عربى آخر. وعليه لجأت إلى تدريب فردى صارم أمارسه فى اليوم عدة مرات، أفترض فيه حضور الخصم قبالتى وأشرع فى لعب الدورين، مرة لصالحى ومرة له.

شهور تفصلنا عن المباراة الحاسمة، لا أدرى إن كانت ستطول. أحضرت رقعة الشطرنج ووضعتها على الطاولة، ووفرت كل الشروط الشطلية لمباراة بطولة عالية المستوى، فوضعت مرآة كبيرة الحجم على الكرسى المقابل للذى أجلس عليه، ووضعت منبهين مضبوطين على نفس التوقيت كما يشاهدهما الناس دائما، أزحت أحدهما جانبا حين أحرجتنى المرآة فصارا أربعة! آه.. الزمن تحدٍ آخر. منبه واحد. يشد المتفرجون عيونهم نحوك وأنفاسك أنت مشدودة نحوه. هل نحن فعلا فى القرن الواحد والعشرين؟ لقد تحايلت الأمم فى تنويع تاريخها إقرارا بما تعيشه من تخلف، ربما. فلسفة خاصة بهذا الزمن الهلامى الذى يبدأ فى كا محطة وينتهى، احتمال وجيه. هناك احتمال ثالث لا يمكننى – أنا لاعب الشطرنج الذى تجاوز الثلاثين – أن أدعيه.

بدأت اللعب بالتناوب، دورا بدور، لم تنطلِ علىّ تلك التمثيلية، إلا أننى جاريتها لشئ واحد، أثبت لدى الاختلاف عن صورتى فى المرآة. انعكاس الاتجاهات أمر مقلق جدا، وكم هم سعداء أولئك الذين يعتقدون أن العالم يبدأ من الشرق. إذا حركت القطعة بيدى اليمنى

حرك الخصم يده اليسرى، وإذا نقلت باليسرى نقل هو باليمنى. أواه.. إنه يطابقني في كل شئ ولكن بشكل معكوس. لا عيْب على المــرآة. أين هو الأصل وأين الفرع فينا نحن الإثنين؟

طبقت فلسفتي في الشطرنج كالعادة لصالحي، وتمثلت الظــروف النفسية التي يمكن أن يعيشها حسب ما قرأته في سيرة حياته وطبقتها لصالحه. وياللمفاجأة التي حدثت، لقد هزمني! صدقني أيها الذي تريد أن تعرف تفاصيل حياة ذلك الرجل الغريــب الــذي صــار لاعبــا للشطرنج بعد سن الثلاثين. وأنا أعتــرف أمــامكم بالهزيمــة، قــد تنازعتني نرجسيتي، لكن الروح الرياضية تقتضي الاعتراف.

في المساء جالت بخاطري معلومات مهترئة من درس قدمه لنــا ونحن صغار ذلك المعلم الذي كنت أحبه: "لكــل شــاعر قــرين أو شيطان يلهمه الشعر حسب مزاجه، وحدث لشاعرنا الــذي ســندرس إحدى قصائده اليوم — أيها التلاميذ الأحباء — أن دخل في حوار مع شيطانه بعد ما سأله: لماذا لا تعطيني حكمة الشعر دفعة واحدة فيكون فيكون لي أفيد ولك أريح؟ فأجابه الشيطان: إن هذا صعب.. صــعب جدا. وعندما سأله الشاعر عن سر صعوبة ذلــك أجابــه الشــيطان، يصعب عليّ أن تتحرر مني وتصبح في غنى عني، ولكنــي ســأدلك على طريق سهلة توصلك إلى حكمة الشعر: عليك أن تجعل النــاس جميعا شعراء، هنا فقط تمسك بزمام الحكمة وتطرد الشــياطين مــن ملك البشر. ويومها رسخ في ذهني قول ذلك المعلم: قول ذلك المعلم: إن الشعراء يهمهم كثيرا معرفة ما يقدمه المستمعون والقراء لقصائدهم من مديح وثناء، لا نرجسية وعشقا لأنفسهم بل نكاية في شياطينهم.

لا أدعي أن الشطرنج والشعر سيان، لا، لقد ولّى زمن الشعر ولم تصلنا حكمته بعد، وسيستقيل الشياطين عندما يصــير النــاس كلهــم شعراء أو مؤمنين، أما الشطرنج فهوكالسياسة عند الكثيرين، نمارسه متى نشاء ولاعيب لهزيمة فيه، لأنه باختصار : رجل على المنصــة يخطب والرعية تصفق، أو رجل على الطاولــة يلعــب والجمهــور يتعجب. عليَّ أن أتجرأ قليلا لأعلن فارقا بينهما لا يخفى على الناس: الشطرنج يثير اهتمام متفرجيه!

لا أدرى كم انقضى من مدة، تلك الشهور، حتـــى حـــان موعـــد المباراة، والنتيجة نفسها: الهزيمة المتكررة أتلقاها يوميا من خصـــمى الذى يطل من المرآة.

غدا يوم الحسم، قضيت الليل كأى لاعب يستعد لبطولة عالميـــة، وفى الصباح جلست قبالة الخصم، خطر ببالى ألا ألاعبه أنا بل أترك الذى يسكن المرآة ينازله، لعله يهزمه ما دام قد تدرب على هزيمتـــى طيلة شهور، لكننى طردت الفكرة من ذهنى. رغبةٌ متأججةٌ تـــدفعنى ذاتيا لإحراز هذا النصر خوفا من تواطؤ الذى يسكن داخل المرآة مع خصمى، فأنا لا أعرف كليهما.

القاعة شبه دائرية، شكل هلالى، مكانك قاب قوسين. البطولـــة أن تتم الدائرة، الأرض كروية، التاريخ دائرى، الكل يدور وأنـــت فـــى الوسط، ذاك هو التحدى. نُضِّضَت الكراسى، صفوفها متدرجـــة مـــن الصف الأخير الأعلى إلى الأول الأسفل، عيون المتفـــرجين متوثبـــة للطاولة التى تتوسط ما تبقى من القاعة. فى فسحة واطئة جلست بعد مصافحته، حدقت مليا فى وجهه، ابيض لدرجـــة التمثـــال، عينـــان زرقاوان نظراتهما قاسية البرودة، يخـــيم الصـــمت، يهـــيمن نبضـــه بالتناوب مع تكتكات المنبه، لا تســـتطيع أن تســـمع غيـــر صـــوت الصمت.. لا أدرى إن كانت صورة المعلم الذى كنت أحبه قد ترممت بين أعطاف ذاكرتى المتعبة تلك اللحظة، لكن قفـــزت الـــى ذهنـــى عبارة: إذا أنتهت اللغة بدأت الحرب. غيـــرت نظـــرى الـــى رقعـــة الشطرنج، ترتيب القطع المتواجهة بالتساوى فى العدد وفى المواقع ــ الحرب خداع ــ الأبيض من جهتى يهبط شـــاقوليا علـــى الطاولـــة، تتجمع أشعته فى توهج مستقيم، يرسم قطرا لامعا للمربـــع الأســـود ويتماهى طرفاه فى المربع الأبيض، ويعلن الحكم البداية.

مدة ليست قصيرة، كانت ملامح وجهى تشى بارتياب ساوره فـــي ما كنت أقوم به من نقلات، أما تضـــاريس وجهـــه فســـاخرة مـــرة ومتوجسة مرة. المعركة كر وفر. فجأة يعلن المنبـــه نهايـــة الوقـــت المخصص لمنازلة.

استطعت أن أهزمه!

وحين كان المتفرجون غارقين فى الاندهاش والتصفيق، كان يدور بذهنى سؤال حاد: هل أنا بطل؟

بعد ذلك بقليل قرأ رئيس اللجنة لائحة التحكيم، رُتِّبْتُ الثانى وحُجِبَتْ المرتبة الأولى لضعف مستوى المنافسة. وعندما انهال الجمهور علىَّ يهنئنى، ارتسمت فى فضاء القاعة صور ضاحكة وحزينة لمعلم يقدم درسه الأخير قبل أن يستقيل، وقد سأله تلاميذه عن السبب فأجاب: إذا كنت وحدك فى السباق، فلا داعى لأن تكون الأول. إنها صورة المعلم الذى مازلت أحبه.

المركز الثالث

الجدار

إبراهيم سليمان نادر - العراق

رغم استياء العالم،

وقرار المحكمة الدولية،

واصلت (إسرائيل) بناء الجدار

في قريتنا دواة خاصة بي وحبر أسقي به عطش الورق، وجلباب لجدتي، تتنفس في طياته غابات من زيتون ودفلى.

ها أنا مرة اخرى في قريتنا، وتحت شجرة التين العجوز. من هنا كنت أسمع حكايا الشوق، أطول الحكايا في حياتي، أكلت مني كل شيء، ولم تبق فيّ أي شيء. قبيل ولادتي بقرن كانت قريتنا جنة عدن، بيادر من زهور اقحوان وشقائق نعمان، لكن اليوم أحسّ بالقهر والذل، تجتاح جسدي الفائر روائح العبيد والمستضعفين.

لم أبك حزناً على الطيور المهاجرة، ولا على جدب الحقول والفراشات الفارة، ولا على ازهار الاقحوان والنعمان، بقدر ما بكيت على أغاني الرعاة وهامات الزيتون بعينين تتفجران بالدموع، تمسح عبراتها، تتدانى الاصداء البعيدة، تحمحم الخيول، تهزج السنابك وتشدو السيوف، ينفتح المدى على آخر اتساعه، تغادر نظرات العجوز الاديم، ترتفع قليلا، يتلون وجهها القديم ويبدو كقمة مضاءة

في الفراغ الرحب وحول الوجه المضاء وعلى اطراف الافق يتـوهج لون السماء، بينما الشمس تساقط أشعتها فوق الجسد الممـدد، فيمتـد ظله ليغمر المسافات الى الغرب من مكانه، وكأنها آتيـة مـن عـالم آخر، أو هي باقايا حلم، فاجأه لون النهار.

مرة اخرى...

أقف قبالته تحت شجرة التين، كانت قامته تستطيل وصدره مشرعا للرياح، لم يلامس جبينه التراب، ولم ينظم شعرا أو موالا، قاوم على مدى خمسين عاما من الاعوام العجاف ولم ينهـار. ابتسـمت لهـذه الخواطر التي داهمتني فجأة، مازال في القنديل بعض الزيـت، لكـن وجه (الجدار) اصطدم بقلبي كنصل حاد.

تلمست صدره الرطب، على هذا الصدر، زهت عشرات الاوسمة والانواط، كلها تؤرخ لجيل من الناس، بطلا أعطى كل شـيء، ولـم يأخذ من الدنيا أي شيء.

بدأ النهار يفقد ألوانه، والغروب يزحف حثيثاً محاولاً اغتيال آخـر اشعاعاته .

بدت السماء بعيدة، كأنما زلزال ضرب طبقاتها واعماقهـا حتـى خيل للناس عند مدخل القرية ان الكون يلفظ آخر انفاسه.

قفز صبي وصرخ بملء فمه:

– هذا جثمان (حسن المسعود)، تحدى (الجدار) الذي اغتال زيتون ابائه وأجداده وأبى إلا ان يترك عليه بصمته الاخيرة.

وقف الجميع يرمقون الافق بعيون تحترق. نساء يبكـين، أطفـال يفرون كالارانب، رجال يبسملون، ثم يكبرون ويركعون، دموع تملأ انهاراً وغدران، صراخ كهزيم الرعد وقصف الصواعق.

بقيت وحدي أرقب ما يحدث، لكني لم أسمع ضجيجاً ودويـاً مـن قبل كما أسمع الان.

اقترب مني رجل نحيل، متخلف عقلياً فناديته:

– متى حصل هذا ؟

ازداد قربه مني حتى تبينت زغب وجهه الاصهب ولـون عينيـه الداكن.

ـــ انه عرس فرّ الى السماء، أأنت أعمى؟
ـــ عرس من ؟
قهقه المعتوه ببلاهة، وطفق يحك بأظفاره لحيته، حتى بانت لـــي أسنانه المتآكلة.
ـــ ألست من قريتنا ؟
ـــ ربما
ـــ اذن ماذا تفعل هنا؟ أنت منهم، أجل أنت منهم، تفووو....
سخر مني، فأشرت له بيدي على بيتنا العتيق، ظنني معتوها مثله، ابتسمت له وقلت:
ـــ من أعطاك بالأمس هذا المعطف، هل نســيت؟ تــذكر (أبــو مرعي)، عمك الذي تحبه.. هه..
دار حول نفسه ثم واجهني:
ـــ أنت، أوووه، ولكن كيف لا تعرف انهم يقيمون عرسا كبيرا؟
ـــ ومن اين لي ان اعرف وقبور ابطالنا لم يجف ترابها بعد
ضحك المعتوه، وغرز نظراته في وجهي:
ـــ وتقول لا اعرف؟
ـــ لانك نسيتني
هز رأسه مستغربا:
ـــ لعلك لا تعلم ان (الجدار) خطف بالامس زينة فتيان القرية.
هؤلاء الغزاة يخيل اليهم ان (الجدار) سيحجب الضوء، لكن بـــاز الصبح سيفترس غراب الليل، في يوم آت لا ريب فيـــه، وتلـــك هـــي الحقيقة.
تذكرت حكايا جدتنا (أم ذياب)، عن رجال ركبوا الخوف وعتمـــة الليل، وقتها فرت الطيور والبواشق من الســـماء، والفراشـــات مـــن الحقول والغدران، كمم الرعاة أفواههم، وجمعوا مواويلهم في حقائب وزجاجات من جحيم لا ينطفيء حتى تعود الارض. لم يكـــن لـــذاك المساء رعشة، ولم يكن له دمعة، لكن الدموع هطلت مـــن فتحـــات العيون الواسعة، وانهمر وقتها دمع أسود قرب الجســـد، ذاك الجســـد الذي ظل دمه يصهل على خد الافق.

شيء لن يعرفه تأريخ المطر أبداً.
سألني المعتوه:
ـ هل انت حزين مثلي على خطف (الجدار) قريتنا؟
قطع سؤاله صوت طبل، لكني اجبته:
ـ انه الوطن.
ـ اذن ستحضر معي الاحتفال، ولكن لماذا لا ترتدي ثيابا نظيفة، وتحلق لحيتك؟ يبدو انك مثلي لم تفعل ذلك منذ زمن طويل.
مسحت حبات العرق التي غسلت وجهي رغما عني، شعرت ان الارض تميد بي، انتابني عناد طفولي، رافضاً الخجل الذي سيطر على مشاعري.
مددت كفي الخشنة الى وجهي، تحسست التجاعيد الغائرة وبكيت (الى اين يا قريتنا ؟ الى أين أيتها الصعبة الجميلة؟ غزال الحب أنت، أم غزال الموت؟ شجرة التين لم تعد تؤتي اكلها كل حين، شاخت وشحبت اوراقها ولم تعد تطرح تينا، أصبحت مثل عروة في رداء).
كانت طفولتي معلقة بتلك الشجرة، كثيراً ما غفيت في فيئها حين كان يخذلني التعب.
تمنيت أن أفتح صدري للريح، وأفر الى فضاء لا تطاله يد المحتل ولا تراه عيناه.
سنين مرت، امتزج العشب الاخضر في المراعي ربيعاً، وتهشمت الاشواك الجافة بين الصخور صيفا، ولكن لن يغتال الغروب نور قريتي.
كان المعتوه ثرثارا وكنت مثله، فسألته:
ـ ستحضر الاحتفال؟
ـ حقا إنك حمار، لماذا لا أحضر والدعوة عامة، سيكون عرسا لم تر البيادر مثيلا له.
قلت لنفسي: (لا يهم، عندما يعم الظلام، ويكتسح السهل والوادي).
لكني أحسست بكرب، كيف أحضر وأنا لم أتهيأ بعد، لا أحد يعلم بوصيتي، ربما يحفروا لي قبراً في مكان آخر، تنطبق ضفتاه على رفاتي وتحجبا عني النور والهواء.

بحدة ونزق صاح المعتوه:

– اسرع واستبدل ثيابك ونظف نفسك جيدا، انه احتفال لا نظير له.

راح الضجيج يقترب ويبتعد. بدأت أشعر به يدّوم في رأسي ويستبيح نبضي وداخلي.

اشتد الدوي وتلاحقت الانفجارات، ثم هدأ الكون وعم السكون. مرت لحظات صمت، استطعت أن أصيخ السمع خلسة. صاح المعتوه مرة أخرى، وراح يضرب الارض بقدميه، ثم رفع يديه كمن يتنكب راية أو بندقية. لمحت في كفيه زجاجة حارقة وقنبلة يدوية، صاح بي:

ـ ستحضر معي وإلا..؟

أحسست بالنشوة والفخار، رائحة من مسك تجتاح بدني المرتعش.

توسلت اليه أن يكون قبري تحت شجرة التين، صرخ بكبرياء الفرسان:

ـ وأنا معك.

أخذ المعتوه يكبر ويتضخم جسده حتى أصبح عملاقا في فمه غليون يشتعل بالزهو والنشوة، عيناه تسكبان اللظى فوق ملامحي وهيئتي، تبرقان مثل نصل حاد.

أزَّتْ من بعيد رصاصات أعقبها ضجيج دبابات وطائرات. اقترب المعتوه ولمعان الزغب الاصهب يغطي سحنته، وبرُيق عينيه يزداد.

ـ هل أنت جاهز؟

ـ نعم، لا بد من إزاحة (الجدار).

ـ دعنا نبحث عن نهاية لهم أعظم فتكا، وأشد رعبا.

ـ لكنك نحيل.

ـ سترى بأسي.

ـ هذا (الجدار) نهش عظامنا قبل لحمنا، حجب عنا الضوء فتشوه به وجه الأديم، لكني لم أبك مثلك.

ـ بماذا تفكر؟

ـ أفكر فيك، أنت ضعيف لا تقدر على فعل شيء.

ـــ خسئت، سترى ماذا يصنع العمالقة.

طار جسد المعتوه في الفضاء، وصاح فرحا:

ـــ إنهم مقبلون نحونا، سأكون في المقدمة، لا تنسى شجرة التين، مواكب العرس ستعبر فوق هامتي وأنت معي .

تطايرت أطرافه فرحا حينما التهبت النار في أول دبابة قادمة.

رفعت يديّ، وغمرت بهما وجهي، قرأت فاتحة الكتـــاب ورددت الشهادة.

سمعت أصداء بعيدة تقترب وتقترب، ثم تلتصق بـــأذني فتطغـــى على كل الأصوات والأصداء.

من بعيد لمحت المعتوه يعدو ويحلق في الفضاء باتجاه الضـــجيج حتى تحول الى نقطة سوداء، ثم ظهر على شكل هالـــة قطنيـــة فـــي السماء وقد توهج وجهه فأضاء الفراغ الرحب وامتـــد ظلـــه المديـــد ليغمر المسافات الى الغرب من مكانه كانت اصوات مـــن كرنفـــال سماوي، تجيء وتغدو، تخبو وتتلاشى وكأنها آتية من عالم آخـــر، أو ربما هي بقايا من حلم جميل فاجأه لون النهار.

على الارض، تجمعت تلك الاشعة فوق جسد (حسن المســـعود) ، فأضاءت أزرار السترة وتفتحت ألوان الثياب. التمع الأسود وتمـــاهى باللون الاحمر والاصفر ممتداً كالافعى.

عند القدمين استقرت صرة خبز وفأس وحزمة بصل. تدافع كلبان ابيضان وأحاطا بالجثة وأخذا يشمشمان الرأس والقدمين والثياب، ثـــم قعدا يلعقان الكفين والشمس تتابع احتضارها عند سيف الافق.

تسوّرت الجثة بالناس. من بعيد علا صراخ طفل:

ـــ أبي ..... أبي .....

هب الجمع نحوه، صاح أحدهم:

– هل تعرفون جنازة الشهيد، لك الفخر يا بنـــي، ســـندفنه تحـــت شجرة التين، لقد أصبحت حباتها دمعا مذهبا، تركت الاذان منذ قرون ولم تصل بعد الى مرفأ الاكتاف.

أدرت وجهي مخفيا الدمع الساكن تحت الهدب، خرج الـنغم مـن الحلق أنيناً، هتفت ملء القلب: (هنيئا لكم، فأنتم الان فـي حواصـل طيور خضر).

انفض الجمع وبقيت وحدي مثل هودج عربي، يحفر مصيره فـي الابعاد وسمفونية الاصابع تحصدني، وتحطني على زيتونة فلسطينية، تسرق مني نهار أحداقي ولا تسأل، لا تراتيل ولا آهـات ولا بحـة صوت حزين.

شعرت برغبة الثكالى الى النحيب، لكن عينيّ مغمضتان وأنفاسي ساكنة وفمي مغلق، افتقدت الصوت والصدى، فلم أعد أسـمع شـيئا ورحت أبكي، ربما لأنه النصر الذي لا يضارعه أي انتصار.

ظلال تتشكل

علاء عامر ـ مصر

مع انسحاب النهار.. أخذ يجاهد فـي صـعوده الـثلاث درجـات الأخيرة فى السلم الخشبى المسند على الحائط.. وقف علـى السـطح وقلبه يدق بعنف متحديا وعيد أمه الواقفة فى جلبابها القروى بباحـة الدار

ــ لن أنزل!

رشقته أمه بدعواتها عليه.. هزَّ كتفيه فى عناد فـدعت عليـه أن "يسخطه" الله قبل أن تتجه للداخل..

بدا مزهوا بنفسه فى أول وقوف له على السطح.. جلـس يطـالع قرص الشمس الذى بدأ يلامس الأرض خلف شـجرتى صفصـاف عاليتين بنهاية الجرن.. صور شتى متعاقبة تتراءى له.. ظل سـاكنا بينما خلف غروب الشمس شـجرتى الصفصـاف محـض شـبحين أسودين ساكنين.. مدَّ يده صوبهما وثمة وَهْمٌ يدفعه للظن بأنه يلمـس كليهما.. يهمس لنفسه مرددا:

ــ رجل طويل وامرأة قصيرة وبدينة

تمايل كلا الشبحين مع نسمات الخريف.. بينما ظـل يوغـل فـى خيالاته.. يوغل فيما ترددت جلبة ضحكة أبيـه الخشـنة فتبعثـرت خيالاته وهبَّ من شروده واقفا وقد لفه الرعب من عقاب أبيه.. هَـمَّ بالنزول.. وضع قدمه على أول درجات السـلم واسـترق السـمع..

صوت أمه تضحك بنعومة ممتزج بصوت خفيض لأبيـــه.. ســـاورته طمأنينة.. وقبل أن تدنو رأسه عن مستوى السطح فى نزوله بدت له إحدى شجرتى الصفصاف كامرأة ترضع طفـــلا.. وبـــدت الأخـــرى كرجل يلاعبه.

فى الصباح توقف عند الشجرتين وهو فى طريقه للكُتَّـــاب.. أخـــذ يدور حولهما لامسا بكفه جذعيهما وهو يتغنى:

تلك الشجرة ترضع طفلا والثانية رجل طيب

فى طريق العودة قبيل الظهيرة.. ظل يتغنى بكلماته وهو يحجل فى سيره.. صعقه صوت أبيه الزاعق يسب أمه وهو يـــدلف مـــن بـــاب الدار.. جمدت أطرافه.. أغلق الباب وانزوى فى ركن داسًا رأسه فى كتابه مأخوذًا بكل حواسه مع صوت الشجار حتى ساد صمت ثقيل.. ظلت أمه تكفكف دموعها بعد خروج أبيه.. حلَّ المساء.. انسل مـــن حضنها وصعد إلى السطح.. هَمَّ أن يتغنى بأغنيتـــه إلا أنـــه صـــمت مصغيا لصوت ريح ترابية تدور فى الأفق.. شـــجرتى الصفصـــاف تتمايلان بعنف.. بدا له "الرجل الشجرة" يدفع "المرأة الشجرة" بكلتـــى يديه محاولا إسقاطها.. وهى تقاومه باستماتة..

سارع بالنزول وظل مستيقظا فى فراشه.. وصفير الريح ينفذ إلـــى قلبه فيستحيل إلى صوت صراخ "المـــرأة الشـــجرة" وهـــى تقـــاوم وتستغيث..

مضى فى الصباح منكس الرأس غائر العينين وهو يتحاشى النظر صوب الشجرتين.. إلا أنه هرول صوبهما حين وجد رجالا قد تحلقوا حول "الرجل الشجرة".. صعد أحدهم وربط حبلا فى أعلاه بينما كان الآخرون يضربون جذعه بفؤوسهم.

فى الكُتَّاب رفع وجهه صوب وجه الشـــيخ.. اســـتجمع شـــجاعته وسأله:

ـــ هل يعاقب الله الأشجار إذا أخطأت؟

رمقه الشيخ بنظرة ريبة.. ولم يرد.

رفع إحدى قدميه فى سيره ليخطو فوق "الرجل الشـــجرة" الراقـــد بعرض الجرن.. تباطأت خطواته حين اقترب من الـدار.. انشـــغلت

روحه بكثرة الرجال المتجهمين الواقفين أمام الدار.. ربـت أحـدهم على كتفه فارتعب ودخل مسرعا.. غامت عيونه بالدمع وهى تبحـث عن وجه أمه بيْن نسوة متشحات بالسواد.. بسطت ذراعيها له.. هَـمَّ أن يختبئ بحضنها إلا أنه فزع من تصـاعد النـواح فهـرب إلـى السطح.. ومن علوه أخذ يرقب الرجال المتجهمين وهم يتوارون فـى الأفق حاملين النعش.. ظل شاردا فى شـجرة الصفصـاف الوحيـدة الواقفة فى الجرن.. أحس بقلبه يذوب وهو يـدعو الله أن "يسـخطه" شجرة صفصاف تكون إلى جوار الشجرة الوحيدة.

قصص متميزة

وادي الليل

أنور عبد العزيز. العراق

ما كان ليلا، ما كان ضوء نهار، بدا الوقت مذبذباً ضائعاً تائهاً خارجاً عن الزمن، وكان المكان هو الأكثر ثباتاً ورسوخاً، ظلمة مضيئة بوهج النجوم وبريقها ولمعانها وزرقتها البيضاء، امتدت تلك العتمة الشفيفة الرائعة لتتصل بأبعد النجوم المشعّة الملتهبة في الطرف الجنوبي، من الأفق الدائري المكوّر البعيد ، لم تكن نجمة واحدة من سماء الوادي السامقة وجوانبه المنخفضة، كانت تبرق وتلتمع منفردة معزولة أو متجمّعة بكثافة أحالتها مصابيح وهّاجة حرّرت وخفقت وأزاحت ضباباً مكّن الرائي أن يبصر ذلك الوادي الفسيح العريض والعميق ، وقد بدا هائلاً مترامياً بلا آفاق أو حدود ..

لن أنسى سحر تلك الليلة وأسرارها وغرابتها ولذّة التطلع والأنغمار والتوّحد مع ذلك الوادي وأرضه الرملية الصخرية الجاقة المتكاملة، حوض الودي وكثبان الرمل وكتل الصخور الضخمة البشعة بأشكالها وتكويناتها وألوانها القاتمة المصفرّة الغبراء، وقد أضفى عليها ليل النجوم ما منح هياكلها وحجومها ضخامة مضافة، وما جعل الحصى المفروش في عمق الوادي السفلي يتلألأ نابضاً بألوانه وبالضوء المنهمر من باقات وعناقيد كتل النجوم حتى تلك البارقة بخفوت في الآفاق البعيدة، السقف السماوي بدا وكأنه حقل مشتعل بأحتفالية ضوئية..

كان الصمت عميقاً موغلاً في روح الوادي وروحي، لا أعرف ما الذي اشغلني وشغلني عنه، كان بصري غارقاً تائهاً في

غموض ذلك الوادي وسكونه وعزلته واستراحته تحت فيض النجوم، وذلك النسيم الصامت الهادئ وقد غمر نفسي باستكانه ودعة وهدوء وحنان العشق الصوفي الحالم الجميل، لحظات أختلط عليّ الأمر، لم أعد واعياً لما حدث أو يحدث أمامي، عندما انتبهت والتقطت أذناي ذلك الهدير الصاخب لأصوات رجولية غاضبة. من عمق السكون الغافي المنتشي بسرّ الليل وصفاء السماء والنجوم، التهب ذلك الصوت الموحّد العالي المتفجّر، لم تكن الرؤية واضحة بما ينبئ عن هذا التغيير الفجائي، لكن رعب الأصوات المزمجرة وطرقعات سنابك الخيل على الحصى والحجارة في ذلك الوادي الخرافي وصلصلة السيوف والتماعات طلقات الرصاص وحمحمة الخيل وهرولة الأرجل النحيفة المتيّبسة المتشققة المدّماة للمشاة، وكان عددهم أكثر من الفرسان.

حشود من هذه الأرجل الحافية العارية وهي تجتاز كتل الرمل والحصى والحجارة وشروخ الأرض المفتوحة ، لم تعد تلك الأصوات الصارخة أنسية وقد غدت بوحشية رعد قاصف مميت، لم أتملّ ولم استطع تبيّن وضوح المشهد ، ولكن ما كان يصلني من تلك الأصوات، ومن لمعان نصال السيوف الحادّة العريضة وانهمار طلقات الرصاص ولهاث الخيل وبحّة الحناجر الخشنة مع تلاحق الأرجل الحافية العجلى المسرعة وهي تتراقص مضطربة في حركتها لتثير وتهيج غباراً أصفر غطى وجوه الرماة ـ فرسانا ومشاة ـ وشعورهم وأعينهم ورقابهم وأيديهم ومسح على أعراف الخيل وذيولها، وتجاوزها ليلتحم بالأرجل الناحلة المجروحة وهي تنزّ دماً في أرض الشوك والحجارة المسنّنة والحصى الجارح..

امتدّ المشهد أمامي وتعاظم، لا يمكن أن يكون كلّ هذا خيالاً، صار رعب الأصوات الزاخّة بقوّة إعصار وكمطر من جليد شيئاً خارقاً أضطرني أن أبتعد واتراجع خطوات عن حافة ذلك الوادي الذي ظلّ على أتساعه وأمتداده وبعد آفاقه مرعى للنجوم، وذلك ما أعادني إليه رغم أن أولئك الرجال ظلّوا على حركتهم العنفوانية السائبة، وظلوا على شراسة أيديهم وسيوفهم وإطلاقاتهم وهم يدورون

ويداورون يهاجمون ويناورون ويجتازون بخيوط من دم كـــل عقبـــة وصخرة، وكان أبرز ما يميّز حركتهم ذلك الصراخ والزعيق، كانت أصواتهم رنيناً وصدى لطبول ضخمة جافة الجلود، أعادتني لحاقـــة الوادي أصوات جديدة مغايرة لغربان سود مـــلأت ســـماء الـــوادي وأعتمته، كشف سوادها نقاط الضوء الساقطة والمنعكسة على ريـــش أجنحتها الخافقة، لم تكن غرباناً قليلة، ورغم أنها لم تتوقف أو تتاخر، فقد كانت أسراب منها تتبعها أسراب تداخلت بألوانها القاتمة مع ذلـــك الليل البهيم، لم أستغرب مرور ووجود الغربان، وما أدهشني متفرّقـــاً متناثراً من لقالق متناثراً من لقالق بيضاء ناصعة اجتـــازت الـــوادي، ولم تحفل هي ايضاً بكل صخبه وهرجه وضـــجيجه، مـــرّت بســـلام ونعومة في طيرانها المتئد الوقور، وإذا كان بصري قد عجـــر عـــن تتّبع وملاحقة آخر طير في سرب الغربان، فأن آخر اللقالق لم يغـــب عن ناظري، وبدا لي نقطة مضيئة مهتزّة متحركة نابضة وهو يبتعـــد عن سماء الوادي، تلك الألفة والهدوء الذي أشاعته اللقالق في نفسي، بدّدها نغم مغاير همجي النبر أخذ يحتلّ سماء الـــوادي، كـــان عاليـــاً مرتفعاً في البداية، لكن سبباً ما جعل ذلك السرب المختلط المتـــداخل من الصقور والنسور والعقبـــان والشـــواهين والحـــدآت والبواشـــق والعواسق والكراكر والبوم والبزاة، يتأخر في حركته يمســـح أرض الوادي وجوانبه، يرتفع قليلاً لينخفض أكثر هابطاً بقـــوة وخفـــة، لـــم ترهبه صيحات الرجال وهتافهم وزعيقهم وما أوقف دورانها ورغبة الاكتشاف كل صليل السيوف وحمحمة الخيل والرصاص المضـــيء المنهمر، ما الذي أثار هذه الجوارح حتـــى بـــدت فـــي إنخفاضـــها وهبوطها قريبة من حدود شفرات السيوف الذابحة، حتى منهـــا تلـــك الجوارح الهرمة المعمّرة الصلعاء العاجزة عن الابصار الكاشف في مثل تلك الليلة الغارقة في العتمة وبلا قمر..

استمر وطال ذلك الهياج والعنف والجنون رغم أنّ البرد اخـــذ يقوي ويشتدّ ويتجلد ورغم أنّ نجوماً شديدة التالق أخذت في الضمور والانطفاء وكنت قابعاً مصعوقاً بالحيرة والـــذهول والترّقـــب، لكـــن اقتراب الفجر منحني الأطمئنان ثمّ إنّ كلّ هؤلاء الرجال ظلّـــوا فـــي

الوادي، ولم يفكر أو يحاول أحدٌ منهم لأي إقتراب من حافته، وهو ما منحني مجدّداً كلّ الأمان والتحرر من الخوف من هــذه الأصــوات الراعدة

منذ المساء ومع تدّرج الظلمة في عمق الليــل، فــأن ســماء الوادي ظلّت نقيّة صافية مزيجاً من زرقة وبياض، والآن ومع ذلــك اللون الشائب للفجر، فقد أعتمته غيمة كبيرة ثقيلة سوداء كجبل مارد غطّت وخيّمت بثقلها وسوادها على سماء الوادي، لم يستقر شكل هذا الجبل المرعب بقممه الكالحة، واخذ بفعل الريح العاصــفة المحتّــدة يتغيّر إلى أشكال وهياكل وملامح بدت لي مخيفة وقد حجبت ضــوء أكبر النجوم، لكن الأمل باقتراب الفجر، والأمل الأكبر لترصّد تفسير لما حدث، ولما أراه منحا روحي سلاماً، والبرد والــريح العاصــفة يجلدان وجهي ورأسي ورقبتي وعينّي ويديّ وقدميّ، وصار صــراخ الجوارح المستفهمة المترقبة المستبشرة الناعقة وقد امتزجت بــاعلى الأصوات المهدّدة المتوعدة للرجال الصاخبين، قد أقحم فــي نفســي وعقلي ــ وفي تلك الليلة المتجّمدة المحيّرة ــ كآبة ضاقت وأختنقــت بها روحي الحائرة والعاجزة عن الفهم الواعي لهذا النفير المدّوي في عمق الوادي ومن هم هؤلاء الرجال ؟! وما الذي يريــدون فعلــه ؟! ولماذا هم هكذا مضطربون مبلبلون صخّابون ؟! ولماذ هذا الــدوران الجارح؟! ولماذ لم يتجاوز أي منهم ــ مشاة وفرساناً ــ هذه الأرض المغلقة المقفلة الدّوارة؟! ولماذا أبصارهم ورؤيــتهم تظــلّ ســجينة مخنوقة في كثبان الرمل والصخر والشوك ولا تتعداها لأفق رحيــب منبسط؟! ولماذا عجزت بصيرتهم أو رغبوا عن رؤية ما خلف هــذه الجدران الرملية؟!

كنت أرتجف بجسدي الناحل مهتزّاً بخفق حمّى كاوية في تلك البقعة الموحشة وكانت قسوة الريح تهزّ المكان بعويلها الصارخ وتهزّ اكثر محنة جسدي وروحي

فرسان الليل هؤلاء ومشاته المعاندون اللحوحون يضــرمون الأرض والشوك والحصى والحجارة لهباً وناراً بصراخ لم يهــدأ أو يهجع طيلة ليلة طويلة ممطوطة، وها هو الفجر يقترب ومــا تــزال

أصواتهم صارمة لم يستطع التعب ولا جهد الليلة الثلجية وعاصفتها وريحها الكاسح أن يوقفه ويخرسه أو يخفف ـ قليلا ـ من حدّته وشراسة نبراته وصدى ترجيعاته وقد أفزعت حتى الجوارح التي أثارت شهيّتها رائحة الدم وطريق السدم دون أن تعطّل أو تؤخّر اقتحامها الشهواني كل الأصوات المنكرة وصليل السيوف وومضات الرصاص، وكل الطبنجات والبنادق والبلطات والسواطير والفؤوس والمدى والحراب والمقامع والخناجر والسكاكين والرماح والسهام والعصيّ الحديدية بنهاياتها المدببّة وقبضات اليد الحديدية وهي تناوش وتهدر في كل مكان، لم يتعطل أو يخمد للجوارح جناح أو مخلب، وهي تواجه عاصفة الوادي بصدور قويّة ومناقير محدبة معقوفة كسكاكين قاطعة وبعيون حمراء توهّجت واشتعلت لمرأى الرمال الدموية ..

طال إنتظاري للفجر، واشتدّت ضراوة البرد وقد صار أذى جامحاً شيطانياً جمّد عظامي وأحال كياني إلى جسد هلامي ما عدت أتحسّس مفاصله كأنسان، صار أشبه ما يكون بصخرة أو جذع متيبّس لشجرة هرمة عاجزة، لا أدري كيف حصل ذلك، فالليلة الأفعوانية المرهفة المؤذية ببردها وصقيعها، وسهري المتواصل محموماً مترقباً قلقاً، أوصلني لنومة قصيرة، وكما تستطيع الطيور والحيوانات أن تنام واقفة، فقد دهمتني أغفاءة كدت اترنّح وأسقط بسببها وكانت قدماي تلامس حافة الوادي، ولكن تواصل الصراخ وحومة هذه الجوارح الهائجة ولعنة البرد أنهت تلك الأغفاءة القصيرة اللذيذة..

الفجر يقترب، والغيمة الاسطورية المخيفة المعتمة أخذت تتفكك وتتناثر وتتوزع قطعاً وندفاً ممسوخة ممزّقة وهي تغادر سماء الوادي، هو الفجر واضحاً ـ هذه المرّة ـ وقد انطفأ ليل النجوم، رغم أنّ الشمس لم تشرق بعد، وعندما تسللت أولى أرتسامات الشمس بتلك الخيوط الذهبية الحمراء، كان فرح القلب جارفاً فعيناي صارتا تلتقطان المرئيات مجردة من هيمنة المخيّلة الليلية، لم تعد أذناي تسمع أو تصطاد أيّ نأمة، أندحرت الأصوات وماتت، وعندما أمتدّ

بصري ليسيح في خلاء الوادي الفسيح، لم يصطدم بأي ظلّ لبشر أو سيوف، تاهت عن ناظري كل تلــك البنـــادق والبلطـــات والعصّـــي والخناجر والسكاكين، وحتى تلك الجوارح لم أر لها وجــوداً، وكــأن تلك الغيمة الشائهة الممزّقة قد ساقتها معها إلى جهة مجهولة، الــذي بقي والذي رأيته ومع سطوح أشعة الشمس الباهرة، كان شيئاً كريهاً وأكثر قتامة وكرباً للروح، صار المشهد ـــ هذه المرّة ـــ قطعاناً مـــن خنازير تجول وهي تمسح الارض بخطومها، وتتشمّم آثــار الرمـــل المعجون بالدم، وقطعاناً من كلاب ضخمة كبيرة جرباء واحدها بحجم حمار، تلوب وتتحرك ببطء حاملة معها قروحها وجروحها وقذارتها وأوساخها، كانت مقرفة تبعث على القيء بجلودها المبقعة العارية من الشعر وبوجوهها وأبوازها الطويلة وأذنابها وآذانها المقطوعة، مــع هذه الكلاب تزاحمت وتقاتلت بعراك وحشي ـــ وقد أهاجتها رائحـــة الدم ـــ ذئاب برؤوسها الكبيرة وفكوكها القوية وبأشـــداق مفتوحـــة، وبأسنانها القاطعة ومخالبها المتأهّبة للقتل، وهي تبحث بين الصـــخور وفي الحفر وشقوق الوادي الجرادء عن اثر ليد أو رجل أو بطـــن أو رأس لمخلوق، فخطوط الدم الملطّخة للصخور والأشـــواك وكثبـــان الرمل أزهرت وأزدهرت احلاماً وشهوة وحشية في عيون الـــذئاب، فلا بد ان تهديها وتوصلها ـــ خطوط وبقع الدماء ـــ ليد أو رجـــل أو رأس لمخلوق.. رغم كل تلك القطعان من الكلاب والـــذئاب كانـــت محنيّة الرؤوس تتشمّم الارض بصمت، ولم يندّ عنها أي صوت ينبه وينبئ عن تسللها ووجودها، فقط كنت تسمع فحيح مئات من الأفاعي والحيات وهي تتلوى وتزحف بنعومة ملمسها حاملة ونازفـــة ســـمّها المرّ ومعها مئات مئات من عقارب سوداء كالفحم، كل عقرب بحجم قطّ تنفث سمّها القاتل من شوكتها الذنبية المنتصـــبة المتحفـــزة بشـــرّ فطري غريزي.. ثم جاء الجراد، كنت قد رأيت كثيـــراً مـــن انـــواع الجراد وألوانها وحجومها، أما هذه الزوبعة العاصفة من جراد هـــذا الصباح فلم ار مثله من قبل، جراد أسود طويل برؤوس تشبه رؤوس الخيل وبأرجل منشارية وقواطع آكله وقد خيّمت على سماء الـــوادي كغيمة الليلة الفائتة المكفهرة العاتية، ثم هبطت لتنتشر وتســـتبيح كـــل

الوادي، لم تعد تجد أثرا لكلب أو ذئب أو ابن آوى، حتى العقارب المختبئة في حفر الرمل خرجت مضطربة هائجة من مكامنها، وحتى الأفاعي — بعد أن هجعت قليلاً — زحفت مسرعة مرعوبة هاربة من أرض الوادي بعد أن كانت ملتفة حول نفسها، أو ممدّدة مطروحة بأطوالها، صرت تراها تبحث عن نجاة في غير هذا الوادي، أول ما هربت الكلاب ثم الذئاب والخنازير وبنات آوى، بعدها تحرّكت العقارب والحيّات، ورغم فزع كل القطعان وهروبها وخلوّ الوادي فأن الرائحة الكريهة الهابّة من الوادي لم تنته وتنقطع وتتلاش وتذوب إلا بعد رحيل آخر الضباع المخذولة، وقد ضاع منها حلم العثور على أي جثّة..

كلما تطاولت ببصرك في آفاق الوادي وأرضه وكثبانه وكهوفه وسمائه وجدرانه العالية وجدتها مسودّة منسوجة بذلك الجراد، ذلك الوادي استحال — وبلحظات خاطفة — كتلا وحجوما متماسكة متراصة ملتحمة، هبّ الجراد المجنّح النهم وانخفض منحدراً بملايينه ليلتصق بكل وجود الوادي، لم تسلم منه شوكة أو صخرة أو حجارة، حتى مسرى ذلك الجدول الشحيح، انحجب عن ناظرك وغاب كل أثر، وحتى ذرّات الرمل، لم تعد تراها، استحالت جحافله كرة هائلة هادرة سوداء، دائرية دوّارة موّاجه، وكانت زوابع وعواصف جديدة من سيول الجراد تترى متلاحقة، وقد استباحت كل شيء، صار الجراد الأسود الشره النهم الأكول المفترس غطاء راكداً ثقيلاً معتماً استباح وخنق كل الوادي، وبدأ انه لن يبرح أو يغادر هذا الوادي لمئات من السنين..

---

* العواسق : من أكثر أنواع البُزاة وجوداً في أوربا.
* الكراكر: ومفردها الكركر، ويسمونها: (اللصوص البحرية)، وهي شبيهة بنوارس المحيط الهادي.
* الطبنجة: ويسمونها أيضاً (البارودة) وهي نوع من البنادق القديمة.

نصف ساعة لا أكثر

يسرى عبد الصادق. مصر

ستكون ساعتها وحيدا، ومنتظرا دورك أسفل العامود ذى اللمبات الأربع الذى اعتدتم الانتظار أسفله ،تأخذك عيناك تارة ناحية تليفزيون المقهى المجاور، وتارة ناحية العربات التى تمرق أمامك شمالا وجنوبا، وتارة ثالثة ناحية الكوبرى المواجه مباشرة لك، وسيأتونك. فى البداية سترتبك، وستوشك أن تطلب تفسيرا لخبط أحدهم الهمجى على صاج سيارتك الأبيض، وفتح بابها بغشم، ثم لليد التى امتدت إليك ممسكة الجاكيت، وأنزلتك بلا أدنى احترام، لكنك ستدرك على الفور من هم؛ فاثبت. كل ما عليك فى تلك اللحظة أن تبقى هادئا وقادرا على استيعاب الاسئلة التى ستطرح والأجوبة التى سترد بها، وخصوصا بعد أن تتيقن أنك المقصود دون سواك. أنت تدرك أنك مسئول عن سيارة ليست ملكك، وأن وقوفك هنا غير مسموح به، لكن وقوفك فى كل أماكن المدينة أيضاً غير مسموح به، وستقول لهم ذلك لو سألوك. لكنهم لن يسألوك، فقط ستخطف يد أحدهم مفاتيحك التى فى الكونتاك لا تزال، وسيقول لك آخر وهو يجرك جراً من الجاكيت: ــ كلم الباشا. فكلمه، فقط حاول ألا تستخدم لغة دارجة. وكن وديعاً قدر الإمكان فيما يتفرسك الباشا بصلعته ووجهه المدور، وامتلاء جسده، وبياض بشرته الذى لا يتناسب أبداً مع سواد نظرته. وتذكر أنك لم تعد وحيداً؛ فزملاؤك اجتمعوا ويراقبونك، ورواد المقهى يراقبون من أماكنهم ما يحدث لك. سيقول

لك الباشا: ــ يالا عشان نطلع حملة. وستسأله: ــ ليه؟ فيجيبك ببرود وهو يأمر أتباعه بالركوب: ــ عشان نلم شويه ناس علـــيهم أحكـــام. فارفض بأدب ركوب الأتباع. ولا مانع من تذكير الباشا انك خرجت من بيتك سعياً للرزق، وليس للحملات، وان صـــاحب الســـيارة لـــن يتنازل عن صاغ من المبلغ المتفق عليه، وأفض ما شـــئت قبـــل أن يخرسك الباشا بشتائمه التى ستعقب تذكيرك له بأشيائك قليلة الأهمية. وإياك إياك أن تبكى. تألم لكن لا تبك. وسيكون من الأفضل أن تكـــتم إحساسك بالوحدة والمرارة عن الآ خـــرين، كـــل الآخـــرين؛ حتـــى زملائك؛ فهم أيضا وقوفهم هنا غير مسموح به، ورواد المقهى لـــيس لديهم أكثر من النظرات، فاثبت. واعلم أنك لو شوحت فقط ســـتعطى الآخرين فرصة تخطيئك. هم ينتظرون أقل هفوة منك ليبررون بهـــا عدم مساندتك، فلا تعطهم تلك الهفوة. وارفض الذهاب بهدوء. سيقول لك الباشا: ــ يبقى هاتطلع على القسم. فاثبت، واهنأ بمثانتـــك التـــى أفرغتها مصادفة قبل مجيئهم، ثم أعط الباشا البطاقة والرخصة اللتين سيطلبهما منك. ولا داع أبدا للإبطاء فى إعطائه ما يريد. أنت كمـــا ترى قد أثرت غيظه بما فيه الكفاية. والأفضل أن تخـــرج تليفونـــك المحمول من الجاكيت، وتستغل فترة مطالعة الباشا للبطاقة والرخصة فى الاتصال. ليس المهم الاتصال بمن؟ المهـــم هـــو التـــأثير الـــذى سيصحب الاتصال. لكنك ستفاجأ بتليفونك وقـــد خطـــف، وأغلـــق، وأعطى لتابع للاحتفاظ به، كما ستفاجأ بتهديدك بقضـــية تعـــد علـــى السلطات إذا ما واصلت رفضك، وعندما سيتدخل زملاؤك مـــادحين سلوكك ومستنكرين حكاية التعدى هذه سيذكرهم الباشا أن وقوفك هنا غير مسموح به، فيصمتون، وسيصر الباشا بدوره على أخذك لقســـم الشرطة، فاقبل الذهاب بثبات. وتظاهر إن شئت بـــأن الدفعـــة التـــى تلقاها كتفك من الباشا شخصيا ما كانت إلا دفعة حكيمـــة مـــن كـــف حكيمة فى لحظة حكيمة، ولشفافيتها ونزاهتها ستفقدك اتزانك قلـــيلا. وصدقنى، أيًا ما كانت درجة تظاهرك فلن ينطلى الامر على أحـــد، وستجد نفسك فى النهاية متورطا فى لعن ذلك الفظ الذى يضحك لـــك أو عليك من داخل المقهى، ويده النجسة موضوعة على قفاه النجس،

طوال الطريق إلى القسم ستلعنه، وكأن الفظ هذا بكفه النجسة هو الذى دفعك الدفعة الحكيمة، عموما لا يهم. المهم ان الباشا لو استدرجك بعد وصولكم، وامتدح تظاهرك بعدم حدوث الدفعة اقسم له بأغلظ الأيمان بأنك لم تتظاهر بل لم تخطر لك كلمة التظاهر على بال، وكل ما فى الامر أنك فقط تخيلت؛ فللقسم كلماته، وللقسم رب يحميه، وللقسم رهبته التى ستشعر بها بمجرد أن تعكس سيارتك اتجاهها، وتهبط المنحدر الذى فى نهايته تتجه يمينا، وتبتلعك بوابة، فتدرك على الفور قيمة أن يصطحبك أربعة من زملائك. وفى الداخل ستشعر بأن روحك مثل بيضة مسلوقة تترصدها العيون بجوع وخصوصا عيون الباشا الذى يبحث بنفسه الآن عن اسمك فى دفاتر تنفيذ الاحكام، وسيجده؛ هى قضية النفقة التى رفعتها عليك طليقتك، لكنك سددت ما عليك، وانتهت القضية، فاثبت. ترى ما الذى كنت ستخسره لو طاوعت قلبك، و انصرفت قبل مجيئهم؟ على الأقل كنت ستمضى ليلة جمعة أكثر أمانا من ليلتك هذه، وما كنت ستنتظر بلهفة كلهفتك تلك أول تدخل من زملائك للرضى بما أراده الباشا لك. هو قال نصف ساعة لا أكثر، وأنت بطبيعتك تكره الاشتباه، والمخالفات وقاطعى الكارته و قضايا التعدى على السلطات والوقوف المتكرر والحملات الامنية طبعا، لكنك بذكائك ستجعل الأمر يبدو على أنه استجابة لتدخل صديق، ورغم استجابتك ستركب رأسك رافضا القيادة، نعم. من حقك أن ترفض القيادة وان ترفض الذهاب معهم، لكنك وحدك المسئول عن السيارة لا تزال، فاثبت. وإذا ما أصروا عليك قائدا لحملتهم فاشترط استعادة تليفونك. ولن يصروا؛ فهم سبعة وثامنهم الباشا، ولابد أن واحدا منهم على الاقل يستطيع القيادة، و......: ـ أنا هاسوق. وهكذا ستبدأ الحملة. وستجلس أنت فى الكنبة الخلفية لسيارتك مثل عجلة مثقوبة، يحيط بك زملاؤك بعد أن تطوع أحدهم للقيادة، وفى أقرب الأماكن لسياراتهم الواقفة فى أماكن ممنوع الوقوف فيها سينزلون إلا المتطوع؛ فيزداد إحساسك بالغربة والضياع والوحشة، فاثبت. هو قال نصف ساعة لا أكثر، وزملاؤك قالوا نصف ساعة لا أكثر. وها هى النصف ساعة تمضى: ثانية، فثانيتين،

فدقيقة، فدقيقتين، فثلاثا، فأربعا، فعشرا، فعشرين، فثلاثين، فخمسين، فسبعين، فخمسة وسبعين، فسبعة وسبعين. وها هو زميلك عندما تطول عليه النصف ساعة يغادرك لحاله؛ فتمضي مضطرا إلى كرسيك وعجلة القيادة ودواساتك وناقل السرعات، تماما كما تمضي عَبَّارَةٌ متهالكة ترفع خداعا علم بنما. هو قال نصف ساعة لا أكثر. وأنت بطبيعتك تكره الانتظار، لكن الانتظار من أجل جرجرة شخص من مقهى وتوصيله للقسم شئ آخر، والانتظار من أجل الإتيان بطبيب بيطرى مشحونا للقسم كخروف شئ آخر، والانتظار من أجل حصول الباشا بما يشبه التهديد على بخاخة جديدة مجانية لزجاجة عطره شئ آخر، والانتظار من أجل الهجوم على غرفة نوم امرأة عن طريق أسطح جيرانها شئ آخر، والانتظار بينما يعبث الباشا بتليفونه المحمول فضى اللون، و جهاز الإرسال وعلبة سجائره شئ آخر، الانتظار من أجل أن يمن الباشا عليك بكلمة من فمه أو إشارة من يده لتعرف وجهتك التالية شئ آخر، ولكن انتظر، ألم تسمع الباشا؟ ألم يلفت انتباهك اسم البلدة التى أمرك بدخولها؟ إنها بلدة صاحب السيارة. وهذا هو توقيتك الأسبوعى لإعادة السيارة لصاحبها. وها أنت تقترب من بيته المطل على طريقك. الأنوار فى الطابق الثانى للبيت دليل على يقظة صاحبه. والسرينة طوع أصابعك، الشئ نفسه بالنسة لدواسة الفرامل. ولا ينقصك الآن إلا أن تضغط عليهما، تضغط طويلا، أطول من أى مرة سابقة، فافعل. وساعتها فقط قد تستعيد بطاقتك ورخصة القيادة وتليفونك المحمول، وساعتها فقط قد تستعيد الخلاص.

أبجدية الصمت

ليلى عبد الله البلوشي . عُمان

مازال الخوف يدب في حواسي ..
والصمت يواسيني ..

كان جالساً بقربي وشدتني إلى عينيه رغبة مخبئة ، مغرية الدفء كلهيب موقد يلوح لضائع بين الثلوج من وراء النافذة ، يصيبني سهم خدره ليشعل النيران في روح يغطيه صقيع شتاء ما، ولحظة انتظار وترقب تجمعني به ، والخوف يدب في حواسي والصمت يواسيني .

غادروا .. وختمت بمغادرتهم ضجيج الأحاديث وهمهمات المدعوين، ولَم يبق غيرهما، والدتي وعمتي وهو جالس بقربي بعينيه الشاخصتين رغبة مخبئة، كانتا تتحدثان عن أمور كثيرة وتهمسان بأحاديث أشبه ما تكون بإشارات ضوئية معلنتين حالة ترقب، وجنون اللحظة الغائبة تغرقني في لحظة انطلاقهما، وعينان شاخصتان فضولا، تتقافز من بؤرة فضية تنساب إلى روحي أوار هذيانها، أترقب ويترقبان وصفارة تعلن مغادرتهما عن نطاق المكان المشحون غموضا، وما لبثتا أن غادرتا بعد حفلةٍ من قُبَل التوديع و أفواه توصي كلانا على بعضنا البعض، حتى خيِّل إليّ أني سأغادرهم أبدا إلى كوكب آخر، رافقهم إلى الردهة، تهادى إلى مسمعي صوت إقفال الباب، عم الهدوء وسكتت الأصوات بعد ضجة المدعوين والعرس.. خلا صوت أقدامه ممتد من الردهة، والخوف يدب في حواسي.. يتعالى عواء سيمفونيته لتعزف لحنها المرعب و يتمطى كابوسها في

أرجاء الغرفة ليستملكني، و جسدي يرتعش من انتفاضـــة أهدابـــه، و بذبذبات خطواته الثقلى يقترب نحوي، فتدور بي ثوان يمنـــة ويســـرة تعد عدها التنازلي للحظة التي يجلس بها بجانبي، إنه قـــادم، أعلِنُهـــا وضربات قلبي تخفق كالمنجل المدقوق بعنف التتار ووحشية ظبـــاء البراري، لم أجد بُداً من إطراق رأسي في الأرض وكأنني ابحث عن إبرة في كومة القش.. تقصد قلبي؛ حين قعد قبالتي علـــى الأريكـــة، وضع يده على يديّ اللتان جمدتا من البرودة من التوتر لا أدري أيّ إحساسين طغى على الآخر فكـــل الأحاســـيس بـــداخلي متضــــاربة الأسلاك، أطلق ابتسامة ظهر خبثها من بين أسنانه، ثم قفـــل ســـائلا وبصوت دافئ: أأنت خائفة مني؟! رحت أتنفس في تـــوتر وارتبـــاك وهو يمعن النظر في ّبعينيه، أشحت بوجهي بعيدا عنـــه وعمـــدت ألا تلتقي عيناي بعينه الشاخصتين رغبة مخبئة، ونفسي تسترسل حديثها: أي ليلة فظيعة هذه! وأطلق صوت زفرتي الصامت: آه لو أغرق في غياهب محيط هادر، لو يطفئ أحدهم التيار الكهربائي كي يقطعـــوا لحظات تفردي معه، لو يحدث شيء مباغت، لو..الـــخ، ويشـــد ّمـــن قبضته على يدي، فيقطع حديثي المتخبط في فراغ الذعر، وبعـــد أن أمال وجهي بأصابعه حياله نطق بنبرة دافئة: إذن أنت خائفة مني؟

و استدرك: أفهم ما يباغتك من أحاسيس في مثل هذا اليـــوم، وإن أردت سأغادر وأتركك تتصرفين بحرية تامة وانسي وجـــودي ولـــن أزعجك إلا ساعة رغبت بذلك، توقف برهة قبل أن يباعد بين شـــفتيه ثم أطبقهما هامسا: لكن لست متأكدا من مدى تحملي أمام هذا الوجه الناطق بالجمال!

والصمت يواسيني.. وكأنه يلحفني عن الخوف الذي أضحى مشيحا لي بوجهه في هذه السويعات المنذرة، وتساؤلات نفسي ترتطم بجدار الصمت بين لحظة وأخرى تعلن صراخها: لِمَ أخذ هذا الخوف يتنفس في جسدي؟ وما سر إذعاني له دون مقاومة؟ لم يُصر زعزعة لـــذتي أمام جسد أضحى مسكنا لرغباتي؟! أجدني أفاضل صمتي لمواجهـــة الخوف من هذه التساؤلات المباغتة، والأجوبة لا أكاد أجدها، ألقيـــت عليه نظرة بطرفي، ظل يتأملني ونظراته مفتونة نشوى ورغبة مخبئة

يلتاع لهيبها في عينيه الواسعتين بريقا شرسا.. مترقبا مني.. لا ليس مني.. بل من صمتي أن يستنطق ولو همسا، كي يستنطقني هو الآخر بسيل من..، لا، لن أغرق في رغوة أمواجه، كان صمتي عاصيا، عنيفا في رده، يال جرأة صمتي!

و يتأملني بشغف كجائع ظمئ هوى على وجهه في إحدى البراري الممتدة جوعا، يريد أن ينقض على فريسته لينهشها التهاما.. وأسمع أنفاسه وهي تلهث وتكاد تلتقي مع أنفاسي الهائمة صمتا، يترفل هاجسها في حواسي.. تخترق رغباتي.. تغمرني بخدر لذيذ، لكن الخوف وخزني ألما.. كدت أتأوه.. فأطبق الصمت على أنفاسي واختفت الرغبة في دهاليز الخوف، آثر هو الآخر أن يذعن لصمتي، أن يعلن معركته أمام حصن منيع يخوض معركة مع خصم لا يكاد يبين من أوردة غموضه، غارق في سباته الصامت، أعلنت في نفسي حالة استنفار فقد حمي وطيس المعركة والعاصفة تولول هبوباً، والزوبعة متأهبة لتأخذ مكانها في ساحة الوغى، وها هو صمته المحسوس يشهر أسلحته أمامي ويستفز صمتي، يتحسس شريانه النابض، وأكاد أذعن مستسلمة لحواسه، إنها تجتاح برعودها الشرسة مكامنه وتتأهب الرياح للحظة جنونية.. شعرت بالدوار وأن الغرفة تقبض على أنفاسي اللاهثة وأكاد أضيق وأنفاسي ترتعش من انتفاضة أهدابه.. تغرقني اللحظة في ضبابية الحدث، يتراءى لي موتسارت وسيمفونيته الأربعون ويرقص جسدي على أنغامه وأمطار تشاطرني في رقصتي، ويقف السياب على الجانب الآخر وصوته يعربد مبتلاً بالمطر ليقرأني أنشودته، و يهذي صمتي وهو غارق في ثمالة سكره، سابح على ضفاف نهر شنيل* التي هاج جنونها في نشوة غارقة مع عاصفة الريح، وتلهُّفه لضمي يبحر بي في غيبوبة حلم معتق هياما وهي تنساب بين مسام جلدي، يلتقي حاشية الأرض والسماء بالمطر والهدهدة تشدو بينهما:

(عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر)
أغرق.. و يغرق جسدي كله باحثا عن غابات رغباتي التي بدأت تشتعل كأعقاب سيجارة ذاب صقيعها من صيف صاحبها، يتأوه فـــي قطرات المطر التي أخذت تلعق وجهي والريح تعول وتـــدور حـــول الأذرع الرمادية لأشجار تسندها ظلالها إلى جانبي الطريـــق وعلـــى رصيف الصمت.. يقف كلانا.. يقترب معانقا وانسل مـــن أحضـــانه برشاقة، ويطلق صمتي رجله للريح.. فأهرب منه، لكن الرعد يتدفق في أذني وجسدي يرتعش من انتفاضة أهدابه وأقع في بئـــر صـــمتي لأجدني فجأة امرأة ضائعة في صحراء شاسعة، و صوت حنجرتـــي تبصق سؤالاً لم أجد له تفسيراً في معاجم العالم كلها.. لِمَ أشتعل مـــع هذا الرجل وكأني أشوى على فوهة بركان ثائر؟!

لِمَ شغفي باحتواء هذا الرجل يتغلغل في أعماقي وتضج بصـــراخها حواسي؟! ماذا عن الذين كنت أعرفهم والتقي بهم، لِمَ لم أحرك ساكنا بوجودهم، لِمَ مشاعري كانت أشبه بالجامدة معهم؟!

طبيب الأسنان، السائق، زملائي في العمل، لِـــمَ فـــي حضـــرتهم رغباتي كانت مخبئة تحت وسادتي الليليـــة، لـــم تتجـــرأ أن تتســـل كحرباءة هاربة من قدرها حينما تفاجئها مطاردة ما؟! وكأنني فـــأرة صغيرة آثرت أن تختبئ في ظلمة جُحرها من أن تهيم في الشـــوارع المضاءة مساءً!

وماذا عن تلك المفاهيم الكبيرة التي تدور كالرَحى في جمجمتي، لِمَ لم أقف عندها قبل اليوم، ألأني كنت طفلة قبل هذه اللحظة؟!

وأتذكر طفولتي، فأرحل هاربة إليها من عذاب اللحظة، وجـــدتني طفلة مرحة مشاكسة تؤنبها المعلمة باستمرار على إهمالها لفروضها المنزلية وأبداً تطلب والدتي كي تخبرها بفوضويتي وتفوق زميلاتـــي عليّ، وتقع تلك الطفلة مغشي عليها حينما تناظر وجهها فـــي مـــرآة الحياة لتعلن لها الحقيقة الهاربة.. أنها كبرت وغدت عروسا، وأطلق تنهيدتي: آآآآه.. ما أجمل الطفولة! نقاء يلـــتهم أجســـادنا الصـــغيرة المشبعة بطهر لا مثيل له في حيوات هذا الدهر، ليتها تعود إلـــيّ..

وأعود إليها، والعبارة تطوقني حنينا، وصدى يتكرر على مسامع صمتي "ليتها تعود إليّ.. وأعود إليها "..

ـــ أتدرين، عزيزتي أنت طفلة في لباس عروس.

قطع طرف صمتي عن الكلام، وانعقد لسان الصمت من هول الدهشة كعيني بومة حائرة..!

مازال الخوف يدب في حواسي..!

والصمت يواسيني..!

ويستبد صمتي أمام عاصفة رغباته وينصب خيمته بعيدا عن مرأى عينيه الشاخصتين رغبة مخبئة، الذي ما يزال على تخومه لاجما لسانه عن أبجدية الكلام، تجاوزت إحساسات تلك الطفلة؛ لأن صمتا من نوع آخر بدأ يستثيرني بقوة نحوه، إنه صوت زفرات صمتي المحموم يبدو أني مازلت تحت تأثير خدر سيمفونية موتسارت ورقصة المطر، ومرة أخرى الأسئلة تجرني خلفها وتطبق بأظافرها الشرسة عنق صمتي المحموم، فأكاد أختنق وتخترق بدمائتها فكري، فاضطر في العودة إليها راكضة على صهوة التساؤل واستفهم عن القضية إياها، فلِمَ لم أحرك ساكنا أمام غيره من الرجال؟! وتتوه خطاي في محيط يجرني إلى جزيرةٍ نائية.. كل شيء فيه يلتهمني بسؤاله الحائر، أليس الذين التقيت بهم سابقا رجالا؟! وماذا عن هذا الرجل الذي تملكين؟! وكأنهم جحظوا بؤرة عيني على قضية لم أدركها قبل اللحظة، إنها كلمة منطوقة من أفواههم لكنها جديدة عليّ "أملكه" ــ التملك ــ أجل، نحن نملك الكثير من الأشياء نبتاعها بأنفسنا، وقد نحصل عليها هبة من الآخرين، ألأني أضحيت ملك هذا الرجل، والآخرين لم يكونوا يملكوني ولم أكن أملكهم!

وماذا عن الذين يمارسون الحب خفية، دون أن يملكوا بعضهم، ماذا عن تلك التي صادفتها ذات مرة متلبسة مع عشيقها في...، لم يكن يملكها ولم تكن تملكه؟!

وهذا الرجل.. الذي يجلس قبالتي، لم ترفرف أجنحة الحب بيننا، لم تسبل بحباتٍ من الدفء المنثور حولنا، بل معرفتي به لا تتعدى هذه

الساعات التي أتعارك بها مع أبجديات الصـــمت، إذن لِـــمَ يســـتثير عواصفي التي كانت نائمة في صدفة الأحلام؟!

لِمَ أفكر بكل هذا، بكل تلك الأحاسيس، المشاعر، الرغبات، الحب، كما أني لم أصمت أبداً كصمتي الآن في حضرة هذا الرجل! ويـــزداد اقترابا مني، ويخيّل إليّ أنه يريد أن يلتقط بشفتيه كلمـــات صـــمتي المتعثرة في روحي قبل أن تتناثر في فضاء الغرفة.. نتبادل النظرات بعفوية لذيذة.. يبدأ صـــمتي يـــرتعش.. وهـــو يقتـــرب.. يقتـــرب.. يقترب.. بينما ينهار جبل صمتي.. رويدا.. رويدا.. رويدا..!

---

* نهر عظيم في غرناطة (الأندلس).

أشياء باقية

شريف محيى الدين إبراهيم . مصر

كانت الناس تتطلع إلىَّ فى تعجب!

وكنت مشدوها حائرا.. لم أكن ميتا.. هذا ما أستطيع أن أؤكده.

إننى أثق تمام الثقة أن هذا العالم ليس وليد اللحظة، وأن كل ماأفعله الآن قد فعلته من قبل عشرات المرات، ولكت فى هذه المرة يبدو لى الأمر ـــ وبعد طول الزمن ـــ وكأنه يحدث لأول مرة.

الأشجار ترقص فرحا، والطريق يتلوى بى وكأنه يداعبنى، والنسوة يمضين فى الطرقات يختلن بملابسهن الزاهية الملونة..

طوفان من الألوان يداعب عينى وكأنى قد صرت طفلا صغيرا. أنا لست بمجنون يداعب الألوان والزهر والبشر، لكننى ـــ أقسم ـــ أننى حر

حرّ فى طعامى.. فى ثيابى.. فى حديثى.. فى تجوالى.. حرّ فى نومى وصحوتى.

خلف أسوار السجن تعلمت أشياء كثيرة، حيث يتضاءل هناك كل شئ من أجل الغد.. فقط أن يأتى الغد، فأنا لم أكن سوى مجرد رقم مهمل خلف جدران السجن المزرية، قد تتساءل عن السبب.. ولا أحد غيرى سوف يجيبك.

إنها امرأة قتلتها بيدى بعدما أوشكت كل شموع الحياة من حولى أن تنطفئ. وبالتأكيد ستظن بها الظنون، بل ستتسرع قائلا:

ـ جزاء الخيانة هو القتل.

فلتتوقف، ولتعلم أنها أشرف وأجمل امرأة على وجه الأرض، فـي ابتسامتهايشرق نهارى وفى سواد عينيها تتعاقب ليالى عشقى الطويلة الساحرة.

ـ ولكنك قتلتها!

= نعم قتلتها.

ـ ماذا حدث؟

= فقط قتلتها!

تريث وسأخبرك الحقيقة كلها..

إن صاحبة القلب الذهبى كانت مريضة، طفـت بهـا علـى كـل الأطباء، ولكن بلا جدوى من شفائها، أو حتى مجرد الحد من آلامها، وللمرة الأولى وجدتنى عاجزا عن مشاركتها فى شئ.. أى شئ.. فى الكلمة.. فى المسكن.. فى النوم.. فى الاستيقاظ.. فى الحـب.. فـي الحياة..

ولذلك كان قرارى الأخير أن نتشارك معا المشاركة الأبدية..

أنا من ضغط على زناد المسدس، لم يكن سوى اللـون الأحمـر، وعندما ضغطت ثانية كان المسدس مصوبا إلى رأسى، أرجـوك لا تتذمر أو تغضب، إننى أكاد أسمعك تصيح:

ـ إنها مجزرة.. إنك لسفاح مجرم.

ولكننى أقسم لك أن هذا هو ماحدث، وبعدها لم أجد نفسـى سـوى نزيل مستشفى للعلاج.

ـ وداعا..

هكذا قالت لى حبيبتى قبل أن ترحل ولكننى صحت بها فى ألم:

ـ لا تقولى وداعا.. إننا معا حتى فى الموت.

= أرجوك ضع حدا لآلامى، ولكن لابد أن تبقى.. من أجلى لابد أن تبقى..

وبقيت!!

بقيت كرها أو طواعية، فالنتيجة واحدة، ولكن ثمة سؤال:

ــ ترى هل بقيت من أجلى أنا أم من أجلها هى؟!

فى السجن تعلمت ألا أكرر المحاولة، فهنـــاك لا تختلــف الأمــــور كثيرا أن تحيا أو لا تحيا.... ولكن كل شئ يتضاءل من أجل الغـــد.. فقط أن يأتى الغد.

وهناك أيضا تتردد العبارات تتداولها الأسن:

ــ يابنى الحى أبقى من الميت.

حينئذ لم أفهم معنى تلك الحكمة المستهلكة، وفقط ــ الآن ــ بـــدأت أدرك معانيها.. فقط الآن وفى تلك اللحظة التى أخطـــو فيهـــا إلــــى الشارع.. فأنا الآن حر، ولازلت لا أصدق!

لا أصدق أن كل شئ فى هذا العالم لا زال يمضى وبنفس الطريقة الأزلية كسابق عهدى به!

وأنا أمضى فى الشارع وحدى! هل تصدق ذلك؟

نعم أمضى وحدى.. بدونها!

آكل.. أشرب.. أضحك!

حتى الضحك بدونها لم يعد مستحيلا.. صدقنى.. لم يعد مستحيلا.

كل شئ أفعله الآن، قد فعلته من قبل عشرات المرات، نعم عشرات المرات من قبل، ولكن بعد طول الزمن يبدو الأمر وكأنه يحدث لأول مرة.

تفاصيل وجع على الانترنت

زكية علال. الجزائر

العالم يتكور في ذيل القرن حتى يغدو كرة ثلجية زائفة اقتحمها السواد بحجة أن الأسود لون أساسي في رسم أحلام البشر، ثم تتدحرج الكرة الثلجية السوداء، وتذوب عند قدمي بفعل حرارة النكسة التي سكنتني، فأجد نفسي أسبح في فضاء مفرغ: لا أرض تقف فوقها قدماي، لا سماء تحتمي بها أحلامي الوردية، ولا بشرا يسبحون في الشارع بل، لا أثر للشوارع، ولا البيوت ولا.. أحسست أن العالم أفرغ نفسه في عمق محيط لا قرار له، وإني أتمايل كبالونة لا تعرف أين تستقر.. فراغ.. فراغ.. فراغ.

سحبتني المرارة إلى بيتي حمامة ضيعت بياضها وسلامها عند بوابة الفتنة الكبرى، فأفاقت على ألوان شتى تتعاقب على خارطة روحها.

أجيء طفلة محملة بخطايا الكبار ومرهقة بحماقتهم التي أغرقتها في متاهات لعبة ممتدة كي تظل طفلة ساذجة لا تفقه شيئا.

أجيء.. خوفٌ من ورائي وبرد قاتل يسبقني إلى غرفتي ليحملني إلى فراشي.. أخرج يدي من جيب عمر غابر، أدفع الباب بضعف الهزيمة التي سكنتني فأجدها تفتح على تضاريس مدينة مجهولة.

ألج إلى الداخل يتقدمني جيش من الرياح العاصفة العقيمة، وتحرسني من ورائي فرقة من الخوف الذي احتواني منذ استيقظت

الشوارع على طوفان من الدم.. والدموع.. والجثث المشوهة ودخان أحلام أحرقتها الحماقة.

حاولت أن أنير ظلمة الغرفة لكن عبثا فالتيار انقطع كما كل المرات، أفزعني الظلام المبعثر في كل الزوايا كالأشباح كم يرعبني الظلام.. إنه رهيب.. يخطف منك الأمن والأمان، ويجعلك تتوقع طعنة من هنا وطعنة من هناك.. يكفي أن نصف العمر يضيع في سراديب ليل مجهول.

هكذا كنت أهمس بخوفي لكل الذين أحبهم، لكن الحقيقية أبشع بكثير مما أصوره لأحبائي فالظلام يلازمني كظلي الرمادي ليزرع الخراب في كل فضاءاتي.

وأنا طفلة صغيرة، كنت لا أنام على قبس من نور، حتى ضوء القمر الذي كان ينكسر على نافذة غرفتي، لم يكن يقنعني كنت أحب أن أغمض عيني على ضوء ساطع حتى أضمن هروب الأشباح. هكذا أخبرتني أمي وهي تحدثني عن طفولتي المتأخرة.

سحبت رجلي نحو كل الأدراج التي هداني إليها عقلي وحدسي، فتحتها لأبحث عن علبة كبريت تنفعني في هذا اليوم العسير.. لكن عبثا فالظلام يحجب عني كل شيء. لست أدري لماذا تملكني الاعتقاد أن الغرفة مليئة بالجثث المشوهة والرؤوس المفصولة والأطراف المقطوعة مع أن بصري لا يفقه شيئا مما حوله. تخيلت أن بعضا منها يتمدد على سريري وبعضا يختبئ في خزانة ملابسي والبعض الآخر على أرضية الغرفة ليزرع الرعب والخراب فيه، اصطدمت بشيء صلب فسيطر علي رعب قاتل وتسلل إلى عروقي ودمي خوف رهيب ذهب بكل شجاعتي وخيل إلي أني اصطدمت بجثة وأنها تتعلق بقدمي طلبا للنجاة، تخيلتها امرأة مفصولة الرأس تتسلق إلى صدري، بل رجلا ممزقا يتعلق بثوبي، لا، بل طفلا متفحما يزحف نحو قلبي ليعود إليه بياضه، لكنني ابتسمت من خوفي المفرط، وأنا أتحسسه لأكتشف أني تعثرت في سريري الحديدي الذي يأويني كل ليلة.

وطال عمر الظلم ــ عفوا ــ أقصد الظلام فتمدد الخــراب فــي داخلي أكثر وكاد يجعل من جسدي المتعب جثة تضاف إلى مجموعة الجثث المتناثرة في الغرفة.. ومن وسط العتمة الداكنة تســللت إلــى صورته، تذكرته، تذكرت سيجارته.. دخانه المتكبر.. لقد كــان هنــا بالأمس ولا شك أنه نسي علبة الكبريت كما تعود فهو كلما مر بمكان ــ أو تعمد ــ أن يترك شيئا من لوازمه يدل عليــه، أســرعت إلــى مكانه أدفع الظلام بذراعين تائهتين.. تحسست ظله الرمــادي بكفــي الأيمن، وخياله الذي يلتصق بي ــ بكفي الأيسر ــ آه العلبة هنا! كــم أنت رائع أيها الرجل بل كم أنت غريب الأطوار تمنحنــي الخــراب حين تقترب مني وتترك لي نورا عندما تغادرني!

ولم أكد أفتح علبة الكبريت وأخرج منها عود ثقــاب حتــى عــم الغرفة نور تعبت عيناي أن تتحمله.. عجيب.. لأول مرة يعود النور بهذه السرعة، فالضوء.. كما الضياء.. كما كل الأشياء المضيئة فــي بلدي، ينطفئ بسرعة، لكن رجوعه يحتاج إلى سنين، نخسر خلالهــا رجالا وعيون أطفال وضفائر نساء، وقبل أن يصل المختصون التيار المنقطع يكون كثير من العباد فقدوا رؤوسهم.. أيــديهم.. أرجلهــم.. أحشاءهم أو جميعهم في آن واحد وفي أحسن الأحوال تســلب مــنهم أحلامهم.

فعندما يكون الملك بأمر الظلام، تتوقع أن تخسر أي شيء وتكون محظوظا إذا خسرت حياتك فقط.

تمددت على سريري الحديدي وقد تخلصت من عقدة الخوف بعد أن أوصل المختصون التيار المنقطع، لم يبق أمامي غير هذا البــرد الذي يكاد يعصف بي، ووجدت نفسي أســخط علــى كــل العلمــاء والأطباء سحقا لهؤلاء العلماء الذين يبحثون للإنسان عن سكن غيــر الأرض بينما الخوف يحصد أكثر مما تحصد الحروب، وعجزوا إلى حد لساعة عن اختراع أقراص تخلصنا من البــرد، وأخــرى تقتلــع الخوف من أعماقنا، وأخرى تجتث من قلوبنا حبــا لا نرغــب فيــه وأخرى ضد الكره.. و.. آه.. لو تحقق ذلك لكنت خلقا آخر وتخلصت

من الخوف والجبن ومن حب جارف سكنني وأقـام فـي شـرابيني وممرات قلبي، ويرفض أن يغادرني رغم تقدم العمر.

آه.. ماذا لو سطع نجم عالم أفلح في أن يجلس العالم على كرسي الطمأنينة والأمان، كما أفلح علماء كثيرون في تخريب خلايا الأمـل في عيون الأطفال وزرع قنابل الرعب بين ضفائر النسـاء وسـحب وسادة الأمان من تحت رؤوس الرجال.. علماء نجحـوا فـي زرع شوكة جافة في حلق العالم جعلته يتخبط كمن به مس من الشيطان..

اللحظة جسدي كله يرتعش.. أسناني تصطدم ببعضـها الـبعض لتحدث صوتا يمزق صمت الغرفة حاولت أن أتزمل.. أن أتدثر بكـل الحكايا الدافئة التي عبرت حياتي.. حاولت أن أستشعر الـدفء مـن حكاية الطائر الجميل الذي قذف به البرد إلى حديقة القلب مفجوعـا، فاحتويته بكل الأمومة التي تنبت في دمي، لأنتبه ذات فجـر فأجـده صريعا فوق أسلاك الروح وبين منقاريه وردة حمراء متفتحة كـان ينوي تهريبها من مملكتي.

حاولت أن أتدثر بحكاية الرجل الأسطورة الذي ظل سنوات ينحت في أروقة الروح قصة وفاء في زمن تزهر فيـه الخيانـة، وتفـرخ وتتناسل كامرأة تحبل من طيف أو من بريق حلم.. وتصنع الفجيعـة علبة كبريت يخرجها من جيبه ليشعل سـيجارة يتحسـس بهـا دفء الحلم، لكنها ترتعش بين أنامله لتنزلق في لحظة سهو.. تقع، لتضـرم نارا تأتي على كل تمثال الوفاء القائم في مملكتي..

حاولت أن أتزمل بكل ارتعاشة صدق ـــ لكن عبثـا ـــ فصـوت العاصفة يزمجر من الداخل.. من العمق ليتوزع في أحـلام العمـر ويقتلعها لتركن إلى يتم لا دفء بعده.

تكورت في فراشي محتضنة وجعي، وتيقنت أنه لـم يبـق أمـام خيبتي غير هذا الصحن المقعر الذي يسمونه (برابول) علّه يمنحنـي بعض الدفء والأمان وينتشلني من خراب يتربص بي.

أخذت جهاز التحكم عن بعد وأقمته بين جدران راحتـي، لتبـدأ أناملي تلعب بأزراره: ضغطت على الزر الأول فجـاءت الصـورة بشعة متفحمة تحمل كثيرا من الجثث منزوعة الأطـراف مفرومـة

اللحم، غائبة الملامح، كأن لم يكن لها حواس تحسست بها زيف العدالة المبتورة...

غيرت بسرعة نحو قناة أخرى فامتثل أمامي صحافي وسيم، يجتهد في رسم ابتسامة باهتة على سطح شفتيه، ظهر وهو يحصي عدد القتلى في مذبحة الأمس.. عبرت إلى قناة ثالثة فرأيت خلقا كثيرا من كوسوفو وهم يرمون كنفايات سامة إلى مكان لا رجعة منه، هربت بصدمتي إلى قناة رابعة، فكانت صورة رضيع تملأ الشاشة وقد أقام عليها الرصاص خريطة بمساحة الخيبة التي تربض في عيون الأطفال.. ولعبت أناملي بكل الأرقام اليتيمة والمركبة، لكن لا شيء غير الدم يرسم لوحة تشكيلية لفجيعة منتظرة.. واستيقظ السخط في نفسي جبارا: اللعنة على هذا الجهاز.. عندما اشتريته اعتقدت أنني ربحت فرحا، اليوم تأكدت أني لم أبتع إلا خرابا، وضعته في غرفتي لأتفرج عليه كل ليلة

وهنا تذكرت مقولة الرجل الذي غادرني بالأمس وترك لي علبة الكبريت: هناك وجع يقتحمنا عنوة، ووجع نسعى إليه ونطلبه

وأطبقت أهدابي على هزيمتي اللامنتهية، لأستيقظ على وجعي وقد اتخذ له مكانا على شبكة الإنترنت، وأصبح بإمكان العالم أن يتفرج على توجعاتي وتأوهاتي متى شاء. لست أدري من حجز لتفاصيل حزني وخرابي على شبكة الإنترنت كل ما أدريه أن وجعي لم يعد سرا يسكن صدري بل أصبح ملكا مشاعا.

فرج ربنا

أيمن ياسين .مصر

لطمته الكلمات القصيرة.. مات رضيعه بعد أن تنسم عبق الحياة يوما أو بعض يوم.. تركه الطبيب إلى موظف مسئول لاستكمال بعض الاستمارات.. أوراق كثيرة بصم عليها لا يدري ما بها.. تنفس الموظف براحة ولملم الأوراق ثم أعطاه أقصوصة صغيرة.. إنها إيصال استلام جثمان رضيعه.. دلوه على المكان.. دلف إلى الحجرة المبطنة بالقيشاني.. رائحة الموت تثقل الصدور.. رعشة غريبة اجتاحته.. استلم آخرُ منه القصاصة ثم ذهب إلى أحد الأركان وعاد وسلمه إياه.. وقف جامدا.. حائرا.. لا يدري ماذا يفعل.. عاجله الرجل "هات حاجه ولفه بيها".. أومأ بغير وعى.. ناوله أحدهم غطاء أطفال بالكاد أحتوي الجسد الضئيل.

مضى إلى الخارج.. لفحه ضوء الشمس.. مرة أخرى ألجمته الحيرة.. ماذا يفعل؟ تعالى صوت أذان الظهر.. تساءل أمن الواجب أن يصلى عليه صلاة جنازة؟ دخل المسجد.. حار كيف يخلع حذاءه والجثمان بين يديه.. نظر حوله لعل أحدهم يحمله عنه لحظات.. لم يجد بُدّا من وضعه على الأرض.. خلع الحذاء بسرعة و حمله مرة أخرى.. تعمد أن يصلى الظهر عند طرف المسجد ليضعه بجواره.. استفسر وأجابوه بشرعية صلاة الجنازة

حتى على الرضيع.. تناول الأمام عنه اللفافة و وضعها أمامه.. أقام الصلاة مرشدا المصلين أن المتوفى طفل فادعوا لأبويه.. لأول مرة انهمرت دموعه و كأنه شعر بحقيقة مصابه حتى أن الناس جميعا مطالبون بالدعاء له ولزوجته.

انتهت الصلاة.. لم يسلم عليه أحد تشاغل الجميع عنه وعن لفافته.. لم يبق سوى الإمام.. أقترب منه.. "هو أول نصيبك يا بنى".. أومأ برأسه بالإيجاب.. اقترب الإمام أكثر.. "والست والدته مش بخير والحمد لله".. واصل الإيماء برأسه بالموافقة.. تهلل وجه الإمام.. "يا ولدى لا يعلم الغيب إلا الرحمن.. إنك صغير السن.. وغدًا يرزقك العاطى الوهاب بالذرية الصالحة حتى تمل الأطفال".. لم يعرف بمَ يرد على مجاملة الإمام.. بالابتسام أم بالبكاء.. وفى النهاية أسعفته إيماءة جديدة برأسه.

ضوء الشمس هذه المرة كان أقوى و الزحام أشد.. جموع من البشر تزحف فى الشوارع و خاصة فى هذا الحى الشعبي أمام المستشفى المجاني.. تمسك بقوة بجثمانه خشية أن يفلت منه من صدمة سائر هنا أو هناك.. خفف القبضة فقد شعر بأصابعه تغوص فى الجسد الذابل.. خشى عليه.. مرة أخرى شعر بدموعه تختلط بحبات عرقه.. لقد مارس شعورا جديدا عليه.. بالحنو وبالخشية على ولده حتى و لو كان جثة هامدة.. برغم أن موضوع الإنجاب هذا لم يكن يشغله ولا حتى يفكر فيه.. بل لقد فوجئ يوم أن أخبرته زوجته بحملها.. استثقل الخبر.. لقد تزوج بالكاد.. ولكنه جاملها بابتسامة باهته ونسى الأمر أو تناساه تحت وطأة قسوة عمله بدنيا ونفسيا.. يقضى يومه جالسا القرفصاء على أحد أرصفة شوارع القاهرة مجاورا العشرات وأمامه تنتصب (العده).. لا تهدأ عيناه بحثا عن زبون يريد تكسير بلاط أو هدم حائط.. يجرى عليه مزاحما العشرات.. يحدوهم جميعا ذات الأمل الذي سريعا ما يصرعه اختيار الزبون لواحد أو أكثر.. يعود إلى جلسته حتى يداهمه الغروب معلنا نهاية المحاولة اليومية إلى غد قد يتصادف فيه اختيار الزبون له.

أخيرا استجابت له سيارة أجرة بمجرد التوقف.. اتخذ المقعد الأمامي و لفافته على ذراعه.. سأله السائق مستنكرا دخوله السيارة قبل إتمام الاتفاق حول (على فين وبكام).. "على فين إن شاء الله".. أجاب باقتضاب متجنبا النظر إليه.. "المدافن".. واصل السائق لهجته الاستنكارية.. "أى مدافن؟ المدافن كتير".. أسقط فى يده.. فجأة اكتشف أن القاهرة الكبيرة بها أكثر من منطقة مدافن.. فى بلدته بل وفى كل القرى المجاورة له.. كلمة مدافن تعنى مكانا واحدا فقط.. وبغض النظر عن مكان المدافن.. الأدهى انه لا يعرف أين يدفن جثمانه؟ زادت حيرته من ارتباكه.. وللحظة فهم السائق.. نظر له بتردد.. "هو ده ابنك يا بلدينا..؟".. مرة أخرى هاجت مشاعره بوخزة كلمة أبنك.. تمنى لو أطلق العنان لدموعه بل لصرخاته.. تمنى لو ارتمى بين أحضان السائق منتحبا.. فى هذه اللحظة بالذات تمنى أمه.. تمنى أحضانها أو حتى لمسة من كفها الخشن.. لعن فى سره يوم أن ترك بلدته إلى القاهرة الواسعة وحيدا مع زوجته لهثا وراء سراب لقمة الخبز.. وبالفعل فى معظم الأحيان كان نصيبه من تلك القاهرة.. فقط لقمة خبز.. أفاق على تمتمة السائق بلا حول ولا قوة إلا بالله.

مضت السيارة تجوب شوارع وأحياء لا يعرفها حتى اجتازت منطقة مدافن.. توقفت.. هم بالخروج منها.. أستمهله السائق.. "أستنى يا بلدينا.. أنت رايح فين.. أستنى دلوقتى ربنا يفرجها".. عاد إلى وضعه منتظرا.. لا يعرف حتى ماذا ينتظر.. إنه فقط ينتظر فرج ربنا.. ياه.. فرج ربنا.. منذ سنوات طوال وهو ينتظره برغم أنه ذاته اسمه "فرج ربنا".. لطالما قصت عليه أمه.. أن أبوه صمم على تسميته كذلك.. فقد تزوج ثلاث مرات بحثا عن امرأة تهبه الولد بعد رحلة طويلة مع الإناث.. وعندما أتت له الثالثة بالولد أصر على تسميته (فرج ربنا).. لم يرد تسميته (فرج الله) لأنه اسم شائع.. لقد أراد لولده التميز ولو فى الاسم.. ولكن القدر لم يمهله حتى يراه مميزا أو حتى معدما فقد مات فى ريعان شبابه تاركا لفرج ربنا .. (العدة).

شعر بتنميل فى ذراعه.. نقل الجثمان للذراع الأخر.. من يدري قد يكون هذا الجثمان أسعد منه حظا.. قد يكون الرحمن قد كفاه ويـــلات وشقاء هذه الحياة ولم لا وكل الشواهد تدل على أن فرج ربنا لم يكن سيورثه وبالكاد سوى (العده).

لكزه السائق.. "الحمد لله.. مش قلت لك ربنا حيفرجها".. لمح مـــن بعيد جنازة تتجه إلى مدفن قريب منهم.. نزل السائق وفتح له الباب.. "تعال.. تعال بسرعة".. مضى خلف السائق متعثرا.. حاول أن يسأل ولكن خطى السائق السريعة خلف الجنازة لم تسعفه.. تركــه جانبــا وذهب إلى أحد حملة النعش مؤكدا لنفسه أنه أقرب أقرباء الميــت.. أسر فى أذنه بكلمات.. وما أن وضع الرجل النعش حتى هرع إليه.. لم يفهم.. أقبل عليه متهللا.. "ربنا يعوض عليك يا بلــدينا.. هاتــه.. هات".. تردد.. لكزه السائق مرة أخرى "أديه له.. أديه لــه".. قــاوم إحساس داهم بالحسرة والحزن بل وبشيء من التأنيب الـذاتى علــى تفريطه فى الجثمان.. أخذه الرجل من بين يديــه وعــاد بــه إلــى المقبرة.. اختفى فى جبها ثم خرج متربا.. أغلقــوا القبــر.. فــوجئ بالرجل يعود ويدس فى يده ورقة بخمسين جنيه وهو يهلل مستبشرا.. "إن شاء الله ابنك ده حيكون نور ورحمة على التربه كلها".

بسرعة تم كل شئ.. حتى أهل الميت ابتلعهم الطريق.. لــم يبق سواه والسائق والرجل صاحب المــال.. أســتأذنهم فــى غلــق المدفن.. ربت السائق على كتفه وسحبه للخارج.. "مــش قلــت لــك فرجه قريب.. وربك بيقطع من هنا ويوصل من هنا".. سار مطأطئ الرأس.. متحسسا الورقة المالية دون أن يدري أنه قد نســى تحديــد مثوى ولده وسط المدافن المتشابهة.

أمنية

بهجت درسون .العراق

تعج ذاكرته بمساحات مزدحمة من الهموم، ونـادراً ماتسـعفه ليتذكر متطلبات زوجته وأطفاله. قررت زوجته أن تكتب متطلبات العيد على ورقة، ليتسنى له إحضارها جميعاً. كي لاينسـى شـيئاً منها. الورقة ازدحمت هي الأخرى بطلبات كادت تمحو مرتبـه، لولا بعض التدبير القاسي من زوجته التي طالمـا تقشـفت بـه، وتجعل بعضاً منه إلى تلك المناسـبات التـي تـتخم بمتطلبـات لايحتملها راتب موظف عادي.

ظل يفرك الورقة المستقرة في جيبه كي لايضـيع عنـاؤه المثقل بزحام السوق. اندس بين هلامات الأجساد البشـرية التـي انتشرت على أرجاء الأرصفة والمسـاحات الضـيقة بـين تلـك الشوارع المترامية بين أبنية الأسواق المختلفة.

أحس بنشوة العيد القادم. فها هو يحقق كعادته كـل مسـتلزمات البيت بفخر. لم يقصر على مدة السنين الطويلة من حياته الزوجية بتلك الواجبات. قفزت إلى ذهنه فكرة تحقيق متطلبـات الأطفـال أولا. استبعد ذلك، لبعده عن السوق. تذكر شراء بعض الملابـس الداخلية لنفسه .. رفض الفكرة، عليه أن يحقق كعادته رغبات كل أفراد العائلة ثم رغباته. اخرج الورقة، قرأها. ابتسـم، سيشـتري متطلبات معجنات العيد، وبهذا سيحقق رغبات زوجتـه وأطفالـه معاً. فها هو سوق العطارين قريبٌ من موقعه. الجوز يحبه جميع أفراد العائلة، وبذلك سيحقق كل رغبات العائلة جميعاً.

اقترب من مدخل سوق العطارين. الأجساد المتلاطمـــة تعصـــر قلبه. الزقاق الضيق تتدافع من خلاله تلك الأجساد المتلاصقة كأنه يوم الحشر. انتظر طويلاً ليلج في هذا الزقاق الضيق، المتراصـــة على جانبيه الدكاكين الصغيرة التي تعبق منها روائح ازدحمت في أنفه، ولكنه ميزها جميعاً: رائحة الهيـــل، والدارســـين، ومقـــبلات الطعام الأخرى، وأصباغ الشربت المتنوعة، كما اســـتطاع تمييـــز ألوانها.. المتآخمة في أواني زجاجية ومعدنية مختلفـــة الأشـــكال ومتراصة كالأجساد الواقفة خلف تلك الدكاكين الصغيرة. انتعشت ذاكرته. تذكر اصطحاب أبيه له إلى هـــذا الســـوق بمثـــل هـــذه المناسبات. تمنى اصطحاب ابنه، ولكن الزحام قـــد منعـــه. هـــذا الحشر المترامي من الأجساد يتجدد كـــل ســـنة، فيحرمـــه مـــن اصطحاب ابنه البكر. كانت زيارته لهذا السوق مـــع أبيـــه لهـــذا طعمها الخاص، وينتظرها بفارغ الصبر. هي أجمل من مناســـبات العيد نفسها. كان يشعر بزهو وهو يقص على إخوتـــه وأصـــدقائه مشاهدته، وما يعج بالسوق من البضائع التي لم يعرفهـــا إلا عنـــد الكبر. وأجمل ما في تلك الزيارات شراؤه الموز المتراخي علـــى عربات الباعة المتجولين.. الموز الموزع على الصناديق البـــيض، وكذلك لحظة قطع الموز بنفسه، وهي مرمية على العربـــة حيـــث يتلقف اثنين منها، ويعطي للبائع النقود المعدنية التي بحوزته. هنـــا كان يشعر بزهو لامثيل له. يتلذذ بأكله أمامهم. كم مرة أشعل نـــار الفتنة مع إخوانه لولا سعة قلب الأب، بإظهار كيس المـــوز فـــي اللحظة الأخيرة. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه لتذكره هذا المشهد.. اعترضت هذه الابتسامة لكزة احد المـــارة، وصـــراخه المفاجئ:

- "لاتتوقف .."

سارت قدماه بسرعة، كأن وخزة ضربت عنقه.. ارتطـــم فجـــأةً بإحدى النساء. أجابته:

- "أصابك العمى"

ضحك في سره. واصل السير، وهو يلعن ذاكرته التي اشـتغلت خلال الزحام. مسافة طويلة حتى يصل العطار الذي يشتري منـه دوماً مستلزمات العيد. طرأت لذهنه فكرة شراء تلك المسـتلزمات من أي عطار آخر ليتسنى له شراء باقي الحاجيات. تشـاءم مـن الفكرة. سيظن عطاره الظنون به كأن يتصوره مريضاً أو أدركـه الموت. لا لن أوصله إلى هذه الأفكار. بل سأقف أمامه كالمعتـاد، ولكن هذه المرة أعطيه الورقة، وحالاً سيزن لي تلك المسـتلزمات المطلوبة، وساعد له النقود كالمعتاد أيضا، وأودعه ثم ادلف إلـى سوق آخر وأشتري باقي الحاجيات.

ما زال في بداية الزقاق، وصـاحبه فـي نهايتـه تمامـاً، والزحام يباعد المسافة أكثر. تلمس الورقة ارتسمت علـى شـفتيه ابتسامة، فلن ينسى شراء أي شيء. هذه المرة سيرجع إلى الـدار وهو في قمة نشوته. سيضع المستلزمات كافة على المنضدة أمـام زوجته.. وسيتجمهر الأطفـال حولـه. وتعبـق الـدار بلغطهـم الطفولي.. ولن تهدأ الأصوات الا بظهور سـلطان النـوم. انتبـه لمرور عربة احد الحمالين. استكان في موقعـه تحاشـياً قـذارة الإطار لكنه لم يتخلص منه فأصاب السخام بنطاله العسلي..

– "ألم أنبهك؟!"

قال الحمال، وهو يجتازه، ثم رمقه بابتسامة خبيثـة. قـال مـع نفسه:

– "هذه ضريبة النزول إلى سوق مزدحم. لايهم. علي أن أكمل المسير إلى صاحبي العطار".

سار عدة خطوات. اندفع نحوه فوج من الأجساد البشرية. ضاق أكثر من قبل. تمنى لو ترك شراء مستلزمات العيد لوقـت آخـر. أعجبته الفكرة. لكنه الآن في منتصف الطريق، وهذا يعنـي انـه سيواجه المشقة نفسها. يكمل المسير إذن هذا هو الحل المنطقي.

هاهو يشاهد صديق الطفولة. رمى عليه السلام ورد عليه. كـان بوده أن يقف معه ولو قليلاً. لكن هلامـات الأجسـاد المتلاطمـة منعته.. كل ما استطاع أن يفعله هو أن يرمق صـاحبه بابتسـامة

ودودة. ثم سارا في اتجاهين متعاكسين. كان صديق طفولتـــه قـــد طلب منه يوماً أن يذوق الموز فأعطاه نصفها، قائلاً له:

- "لم أذق فاكهة أطيب منه"

تحسر على تلك الذكريات. الآن يصعب عليـــه شـــراء المـــوز لأولاده إنها فاكهة الأثرياء. لعن في هـــذه اللحظـــة الفقـــر. وردّد بعصبية:

"لو كان الفقر رجلاً لقتلته.. لقتلته بتلذذ".

استغرب لتحسن ذاكرته.. بل لتذكره كل هذه الصـــور البعيـــدة والممتدة إلى الطفولة. كم مرة لم يسطع تذكر حوادث حدثت قبـــل ساعات أو أيام. قال جازماً:

- "لا أتذكر ما تناولته في السحور، بل لاأتذكر إني صائم فـــي أغلب الأحيان"!

ازدادت حيرته. لماذا يتذكر ما حدث في طفولته بينما لايتـــذكر أشياء حدثت قبل عدة ساعات؟! ما هذه المفارقة؟ أتكون للطفولـــة آلفة تزداد دفئاً مع الايام وتنتعش؟! أم إننا مازلنا نبحث عن تلـــك الذكريات التي كونت شخصيتنا، ولهذا تكون مرتبطة وملتصقة بنا أكثر. ماهذه الأسئلة التي بدأت تســـتفز مخيلتـــي؟! وأنـــا مهمـــوم ومشغول بشراء متطلبات العيد. هل متطلبات العيد نفسها هي التي أوقدت لذاكرتي جذوتها، أم رؤيتي لصديقي قبل قليل.. يـــاه كـــم تمنيت أن أعود إلى طفولتي؟! طفولتي البسيطة بحلوها ومرها؟!

أيقظته الضجة في الزقاق، فالصراخ والتحام الأيدي والأرجـــل أرجعته إلى حاضره. استغرب لهذا العراك، والناس على أبـــواب العيد، واستغرب أكثر لوقوفه قرب صاحبه العطار. نسي العـــراك واهتم بشراء متطلبات العيد. بدأ العطار يزن حوائج المعجنات. ثم تذكر فجأة العراك. قال للعطار:

- "لما هذا العراك".

أجابه:

- "يقال احدهم سرق الاخر".

"رد ببرود

- أعوذ بالله.. أعوذ بالله".

مد الرجل يده في جيبه ليعطي حساب العطار؛ فوجد نفسه قد وقع ضحية أحد اللصوص أيضا. حوقل العطار كثيراً وأعطاه كيس الحوائج، على أن يسدد له في وقت أخر، لم يكن يتصور بأنه سيسرق. مد يده في جيوبه. لم يشاهد غير وريقة واحدة من فئة مئة دينار.

- "يكفي لكي أعود به إلى الدار".

قال هذا مع نفسه، وسار قليلاً مكملاً سيره إلى نهاية الزقاق. أصبح الجسر الحديدي المستقر على نهر المدينة أمامه تماماً. تذكر فجأة سيره مع أبيه. قادته قدماه إلى مجاز الجسر، وبدأ يسير، شاهد رجلاً مقعداً يجلس ملاصقاً للحديد منادياً:

- "من مال الله. من مال الله".

وضع يده في جيبه، وأخرج ورقة النقود، ووضعها فوق قطعة القماش المستقرة أمام المتسول الجالس، وسار مجدداً في مجاز الجسر الحديدي، وكيس حوائج العيد يتأرجح في يده تماماً كما كان يتأرجح هو في يد الزمان.

أوركسترا ليلة قمراء

ريم محمد جهاد - مصر

(أربعة عشر عاما)

جلست فى الشرفة ليلة الأربعاء، أنزل الليل ستائره منذ ساعات يحجب الفجر الذى مهما طال حجبه فسيطلع برغبته فى إسعاد القلوب وليس رغما عنه، جلست أشاهد الليل، أحس النسيم يداعبنى بين أذني، وأحس أن حفيف أوراق الشجر يغنى لهذه المداعبة، جلست إرى الفل والنرجس والياسمين يتمايل مع قطرات نجوم السماء، لمعت عين الشمعة فى الشرفة المجاورة لرؤياه، جلست أشاهد الليل، جلست أشم قطرات الندى التى تريح النفوس وتهدئ القلوب، جلست أسمع الخطوات وقطرات ماء الجدول الصغير، وأرى ذهاب الكروان إلى عشه لينام.. وتبسمت..

اختطف نظرة منى إليه.. هو.. اختطف عينىَّ إليه.. اختطف دمعتى بسحره وكلماتى بجاذبيته، ذلك البدر.. اختطف روحى منى كأنه يريد أن يشد انتباهى، أهو فضول منه ليعرف سر تبسمى؟ أم هل البدر بدرٌ يواسى حزينا ويطمئن قلقا ويبادل سعيدا كما يقولون، أوَ أحكى لبدر ليلة قمراء؟ أوَ جُنِنْتُ أنا؟ لكن.. لمَ لا؟ ربما يسمعنى ويشعر ويتبسم هو الآخر..

أيها البدر الذى جعل خالقك تلك الليلة تضئ بنورك، وتلك النجوم تتلألأ بسلسبيل ضيائك، وتلك الأزهار تتمايل بنظراتك، وذلك النسيم

يرسو بحبك.. إنك تسحر القلوب! حزينة هى كانت أو سعيدة.. إنــك جذاب برؤياك! لكننى لست حزينة، ولست سعيدة، بل إننى راضــية رضا تلفه غلالة حزن سعيد الذكريات.. ستسمعنى؟

بدأت، هى كالمقطوعة الموسيقية. بدأت، هى، يشــوبها غمــوض تتخلله بسمة.. بسمة استفهام، ترى أستكون "هى" كــامرأة ذات رداء أبيض؟ أم أجمل.. فتكون حمامة ذات غصن زيتون فــى منقارهــا.. تحلق عاليا فى الأفق.. تداعب نعومة الهواء أجنحتها؟

استمرت كالمقطوعة الموسيقية.. تتناغم.. فهمسة ناى ولمسة قيثارة ودقة طبل رقيق السطحفتكون هى باسمة راضية منتظــرة باســتفهام أصبح أقل مما كان عليه فى بدايــة العــزف، فتكــون كالطفــل ذى العامين.. راض.. يلعب.. يسأل عن كل ماحوله ببسمة لايعرف مــن حوله ما الذى وراءها.

يعلو الصوت بعض الشئ وتبدأ باقى الآلات فى التــداخل، وربمــا تتطفل كل آلة تلو الأخرى لتشارك ــ أيها القمر ــ فى ذلك اللحــن، فتكون كالطلاب، كل منهم يريد أن يصبح الأفضل. ويستمر الســباق حتى تعلو وتعلو الأصوات وتعزف جميع الآلات ما تريد ويبلغ عزف "الأوركسترا" ذروته ويستمر العزف وتنصهر الألحان الفردية ــ أيها البدر ــ فيما بينها. وتقف "هى" تسمع الآلات الأخرى وتعزف ويعلو التناغم، لا، ربما كان غضبا وتكون كالثائر الذى لا يرى أمامه، ربما يسقط هؤلاء الطلاب والطفل ذو العامين وحمامة الاستفهام والمــرأة الملائكية ذات الرداء الأبيض، تكون كالثائر.. يغضب ويعلو صــوته وتقوى يده ويحمر وجهه.. لكن فجأة تموت الآلات لوهلــة قصــيرة وتسكت "الأوركسترا" لبرهة أقل من قليلة.. وتهــدأ لــتكمن داخــل النفوس. وتكون "هى" كالطفل الذى راح يبكــى ثــم حوطتــه أمــه بذراعيها وراحت تضمه إلى صدرها فيسمع دقات قلبها. أمــا زلــت تسمعنى أيها البدر؟ أم استهوتك حكاية أخرى؟

يبدأ الناى وحده بالعزف الرقيق، كقطرة المطر فــى بئــر هــادئ

مستقر، ربما ــ بعد ذلك ــ تشاركه قيثارة ويسيران سويا فتكون كالحمامة أو المرأة اللتين استفهمنا عنهما فى أول الحكاية.. أتذكر؟ الآن أصبنا فى الإجابة.. فهى ــ أيها القمر ــ حياتى، حياتى التى بدأت فى العام الماضى.. أحلى أعوام عمرى..جئت إلى هذه البلدة، أجنبية عن أهلها، تبسمت تفاؤلا ورحت أسأل نفسى: ماذا تخفين لى أيتها المدرسة الكبيرة القديمة؟ وماذا ستأخذين أيتها البلدة الصغيرة وماذا ستعطين؟ وهل سأنجح؟ أم ترانى سأفشل؟ لن أطيل عليك الحديث أيها البدر، بدأت الدراسة، وكان كل شئ على ما يرام لفترة لا بأس بها، ثم تعرضت لما هو ليس قليل، تضايقت، وكتمت فى نفسى، أحيانا نظرات، أحيانا إحساس بالفشل، أحيانا اضطهاد، أحيانا يأس، وتارة أخرى إحساس بالموت يحوطنى أيها القمر، لأسباب كثيرة منها ما لن ولم أحكه. وأكتم ويكتم قلبى.. وأبكى وتبكى نفسى.. والجأ للأحلام والذكريات والخيال، ولكن لم يُجْدِ ذلك نفعا بعد القليل من الوقت.. وأصبحت حياتى ــ أيها البدر ــ كتلك "الأوركسترا" تعلو وتعلو معها الآلات حتى تبلغ ذروتها وانفجر. انفجرت أنا؟ لا.. ربما مللت ومل معى قلبى وانكسرت كما كسرت "الأوركسترا" التناغم العالى، ثم هدأت بعد وصولى إلى قمة الجبل وكدت أسقط كالأوركسترا التى كادت تموت، ثم نظرت خلفى وطالت نظرتى، ونزلت، وتلفت حولى، وتبسمت، وراحت روحى تطير فى رحاب ملئ بالهدوء والرضا وبعض الحزن..

غيرت حياتى بيدى، غيرتها بعد أن كانت رافضة للتغيير، وابقيت روحى كما هى، فى المدرسة.. تغيروا "هم".. وبقيت "هى" بين يدى.. لم أغير داخلها.. فبقى الناى والقيثارة و...

أحس... عندما لا أملك قلبى، عندما أحسه خفيفا طائرا يرفرف فى جميع النواحى سعادةً ورضًا واطمئنانا وحبا، عندما أحس أننى لا أملكه لأننى أحب جميع من حولى وإن كان مستحيلا ــ وأحب الذكريات وبعض ذلك الحاضر القريب وأحب وطنى.. وأحب تلك المدرسة الكبيرة القديمة وتلك البلدة الصغيرة، وأحس عنما أخلع

نظارتى أننى أرى العالم جميلا لأن عيناى تسبحان فى سلسبيل السماء، ونظراتهما تتبسم فى ترنح الرياح من دون إطار يحدد وجهتها.... وأعشق المدرسة الكبيرة القديمة — أيها البدر — وأحب من فيها، وأفرح لذكرياتى بها، وأبكى لفراقى إياها، أبكى وأحس أن جزءا منى ينتشل من قلبى..

أيها البدر.. نحب نحن.. ولا نملك ما نحب، ولا نملك من نحب، وليس بأيدينا الوجود فى مكانين انقسم بينهما قلبنا..

لكن فى النهاية أيها البدر.. نستطيع تلوين حياتنا، وتزيينها، وجعلها جميلة، لنحبها حتى وإن أحسسنا أنها ترفضنا أحيانا، حتى وإن علت "الأوركسترا" واختل تناغمها والتحمت الآلات، فستهدأ ساعة ما، وسنجعلها لحنا جميلا بديع الصوت.. بديع الملمس..

أليس كذلك أيها البدر؟

ها أنا أدخل لأنام، أترك البدر ورائى والشرفة خلفى وأستقر فى سريرى وأغمض جفنىَّ وأسمع همس القمر من بعيد:

"نعم كذلك يا صغيرتى.. بديع الصوت.. بديع الملمس"

وأختلس نظرة فإذا به يتبسم.. وأبادله ابتسامة...

وما صرخت

أحمد سعيد العمري ـ فلسطين

ـ١ـ

كنت كلما صادفته في مكان ما من شوارع هذه المدينة الصامتة منذ أمد بعيد والتي هي في النهاية مدينتي، أقف قبالته حائراً أتأمل وجهه على مهل.. الأنف.. الفم.. الأذنين.. أرنو طويلاً إلى عينيه المسالمتين الحائرتين، أبحث عن علامات التشابه، فلا ينتابني إلا الحيرة!

أعود إلى البيت مسلوباً إلا من ينابيع الأسئلة، أحدق في صورة وجهي المنعكسة بالمرآة.. الأنف.. الفم.. الأذنين.. أرنو طويلاً إلى عيني المسالمتين الحائرتين! أبحث عن علامات التشابه، فتزداد حيرتي!

كالتائه أسير بين الناس، أبحث في عيونهم، علني أجد فيها ما يبعث بداخلي على الأمل فلا أراها إلا مسالمة وحائرة، وكأن المدينة التي ولدت فيها انكشفت لي فجأة، وكأن أهلها غرباء عنها وعني، مما زادني ازدحاماً بالأسئلة، كانت الأسئلة تنمو بداخلي كنباتات وحشية تدفعني للصراخ والجنون.

ـ٢ـ

كان نهاراً حاراً حين وقف يصرخ وسط سوق المدينة رافضاً الامتثال للأوامر، ولم تُجْدِ نفعاً كل تلك الهراوات التي انهالت عليه

مترافقة مع كلمات تنز لؤماً وغيظاً، واستمر بالصراخ بطريقة توحي بالتحدي ورفض الإذعان وكأنه بدأ تمرداً، لا أحد يعلم متـى وكيـف سينتهي.

كان وحيداً وغريباً وسط السوق، لكنه امتاز بامتلاكه القدرة علـى الصراخ، وصراخه المتواصل بدّد صمت المدينة ولفت إليـه نظـر الناس وتحولت مشاعر الشفقة إلى إعجاب وتقدير.

إن الكلمات التي سمعتها، في ذاك النهار، حين كانـت الهـراوات تنهال عليه ما زالت تدق برأسي، وتحديداً تلك الكلمة (يـا حيـوان). شعرت أن ذاك الصراخ كان يخرج من أعماق روحي، ساحباً معـه الآلام الساكنة فيها، ومدّني بجرأة لم أعهدها بنفسي من قبل، وتملكتني على أثرها رغبة جامحة بالصراخ، أوشكت أن أفعلها بنفس اللحظة، لولا الدهشة التي حطت عليّ محملة بأثقال من أسئلة لست مهيئاً على حملها أو حلها فتمنيت فيما تمنيت لو أن صاحب العينين المسـالمتين الحائرتين يخفف عني، ويأخذ قسطاً من أثقالي، بعد أن كبـر بعينـي لدرجة لم يصل إليها مخلوق آخر. للحظات شعرت بأنـه جـدير أن يكون مثلاً وقدوة لي، طالما أنه استطاع أن يعبر عما يجول بخـاطره وخاطري، ولطالما تمنيت يوماً أن أتمرد على واقعي ولم أجرؤ حتى على البوح بالتمني، فهو بصراخه أطلق تمرداً لـم ينتـه إلا بعـدما حصل على ما يريد، مع استمرار الصراخ ما كان من صاحبنا أقصد صاحب الحمار إلا أن توقف عن الضرب والنعر والنهر، ومد لرفيق دربه مداً من الشعير، وقال له مغتاظاً وساخراً:

ـــ تفضل يا بك فضحتنا بين البشر.

لكن الحمار رفض ما قدم إليه مما دفع صاحبه للمزيد من الرفـق واللين وبدأ يمسح له على رقبته ويتمتم بكلمات لم أفهمهـا، فاسـتكان الحمار ورفع رأسه عالياً وهزه عدة هزات فبدت رقبته كرقبة حصان جامح وكأنه يعبر عن نشوة انتصار أو قبول اعتذار، وبعدها باشـر بالتهام عليقته، بينما نظراته تراقب البشر بعينين مسالمتين حائرتين.

—٣—

لما أدركت أن رغبتي بالصراخ لم تنطفئ مع تبدد الأيام، كان لابد أن أحاول، فهممت صاعداً قمة الجبل.

قلت لنفسي:

ـ هذا هو المكان الذي يمكن لي أن أشبع به صراخاً دون أن يسمعني أحد.

فردت علي:

ـ وما الجدوى من الصراخ في مكان لا يسمعك به أحد.

قلت لها:

ـ إن لم أصرخ سأموت قهراً.

حدقت في مدينتي الراكعة تحت أقدام الجبل، محاولاً دفع السؤال إليها، فهي ومهما بدت غريبة عني، ومهما بدوت غريباً عنها تبقى في النهاية مدينتي، فبدت والسراب يحيط بها من كل جانب وكأنها كثبان من رماد ساكن ما مستها ريح ولا نسيم، تلفت إلى كل الجهات، فطمأنتني نفسي بأن لا أحد يسمع حوارنا هذا.

فقلت لها:

ـ إن لدي من الأسباب والدوافع للصراخ أكثر مما لدى الحمار بكثير.

قالت:

ـ أعلم ذلك، وأعلم إن صمتك موت لي ولك.

كانت الشمس قد استوت على عرشها وسط الفضاء، وقد امتدت سطوتها إلى كل خلية من خلايا جسدي، فشعرت كما لو أني أحترق، حاولت أن أبدأ الصراخ، فخرج من حنجرتي ما يشبه الفحيح، حاولت مرة أخرى فلم يكن فحيحي يصل إلى أكثر من أذني، فلملمت نفسي منحدراً والخيبة تظللني، كررت المحاولة في أماكن نائية مختلفة، وفي كل مرة أعود إلى مدينتي الصامتة مثقلاً بالصمت والخيبة.

كنعجة أدس رأسي بين الرؤوس، فأشعر كم أنا وحيـد وغريـب، وسط هذا الازدحام، ونفسي تصرخ بداخلي بلا كلل ولا ملل ولا تكف عن سؤالي:

– كيف نهق الحمار وما صرخت.

المظاهرة

شيماء زاهر-مصر

لم يكن يتصور أبدا أنه سيقف يوما ما تحت قبة الجامعة، يحمل اللافتات ويتظاهر مع باقي الطلاب. كل ما هنالك أن الفتاة التي يحبها لها آراؤها في السياسة وأراد أن يخبرها بشكل عملي أنه هو أيضا له آراؤه السياسية وقناعاته الخاصة به.

وعندما كان يلتفت يمينا ويسارا وهو ينظر إلى زملائه يحملون اللافتات، كان قلبه ينقبض كلما لاح أمام عينيه المشهد الشهير لطلبة الجامعة حين يأخذونهم إلى قسم الشرطة بعد المظاهرة ويعيرونهم ضربا. وتخيل نفسه وهو يصعد على سلم بيتهم القديم، منهك القوى، مبعثر الثياب، وما أن يصل إلى شقتهم في الطابق الثالث، يقع من طوله من فرط الإعياء ومن هول المفاجأة على وجه أبيه المسكين..

وحاول أن يطرد تلك الخيالات من ذهنه وأخذ يشغل نفسه باللافتة التي يحملها ويحرك قدميه على الأرض بين الحين والآخر عله يتفادى لسعة الشمس التي أخذت تخترق الكوتشي الذي يرتديه وبدأت تلهب أطراف قدميه.. وعاد بكتفيه إلى الوراء، ورسم على وجهه ابتسامة وهو يرفع لافتته إلى أعلى ويستدعي لذاكرته المتظاهرين في الخارج كما يراهم في التلفاز، يحملون اللافتات في صمت أو يرددون بعض الكلمات دون ضوضاء ودون كلام زائد..

ونظر حوله وطمأن نفسه أنه هو وزملائه لا يتعدون ثمانية طلاب وأن المظاهرة ما دامت محدودة العدد، فلا بد أنه لن يكون هناك

أذى.. ولمح من بعيد حبيبته تقف على الرصيف المواجه له، تقرأ اللافتة التي يحملها، تثبت عينيها في عينيه وتبتسم له...

وبدأ أحد زملاءه في نطق أولى الهتافات وتوالت الهتافات تلو الأخرى محدثة ضجيجا بدا له مقززا أول الأمر.. لم لا يتظاهر الكل في صمت؟ أليس من الممكن أن يعبر الإنسان عن رأيه دون الحاجة إلى هذا الكم الهائل من الهتاف؟ لا شيئ يهون عليه الحر والضجيج سوى مشاهدة حبيبته له، تشجعه وتبث إليه الشعور بالثقة فيما يفعل..

على البعد كان يلمح أسرابا من الطلبه والطالبات يتجهون إليهم، يندمجون في دائرتهم الصغيرة، يرددون ما يقول زملاؤه وكأنهم عرائس خشبية يحركها رجل واحد بخيوط خفية ويلقنها ما تقول..

يخفق قلبه بشده كلما انضم إليهم طلاب جدد واتسعت الدائره.. المشهد أصبح أكثر كآبة.. انضم إليهم طابور من زميلاته مكتسيات بملابسهن السوداء والزرقاء.. يختفى وجه حبيبته وسط وجوه العشرات من الطلاب الذين التفوا حولهم يسمعون ما يرددون..

الهتافات تملأ الفضاء من حوله والدنيا تسبح أمام عينيه.. هو الآن في بيتهم.. أبوه يجلس في غرفته يسبح بعد صلاة العصر.. من غرفته يمكنه أن يرى والدته في البلكونة وهي تحمل صينية ويتأمل حركة يديها الأتوماتيكية وهي تنقي الأرز.. يستفزه هدوئها وإستكانة ملامحها.. ينهض من سريره، يشاكسها، يخبرها أنه يريد أن يفاتحها في موضوع هام وعليها أن تنتبه له، تتوقف حركة يدها للحظة وتتجه إلى المطبخ وهي تشكوه وتقول إن كل شيء مسئوليتها في هذا البيت ولا أحد يشعر بها..

في المدرج الواسع بكلية الآداب، يجلس بجوار زميلته، ينظر إليها بين الحين والآخر وهو يتسآل إن كانت تحس بمشاعره أم لا.. تدق ساعة الجامعة الثامنة وتغيب الشمس.. عبر سور الجامعة يمران سويا إلى الشارع الأكثر رحابة.. تخبئ جسدها خلف جسده وهما يعبران الشارع.. يحس بدفء روحها وهي تحتمي به من العربات والمارين والليل.. يصلان أخيرا إلى بيتها.. يتوقفان.. يمتد نور عينيه إلى وجهها ووجنتيها.. يطبع قبلة على جبينها.. يودعها.. ويغادر

وحيدا ويحس بروحها ترفرف حوله ويمشي على كوبري الجامعه يتأمل النيل، يتذكر حبيبته ويحلم بالغد..

لم يعد في الأفق أي أمل.. فالعساكر قد بدأوا يطوقون سور الجامعة من كل إتجاه وهناك إحتمال ضعيف أن تنفض المظاهرة.. كان بإمكانه أن ينسحب من البداية حين كانوا ثمانية أفراد، أما الآن، بعد كل هؤلاء الذين تبعوهم وتظاهروا معهم، لا يمكنه التفكير في ذلك، ليس الآن..

يعرف خطة سير المظاهرة جيدا..فمن شارع الجامعة كانوا سيسيرون إلى شارع القصر العيني، ينضمون مع الطلبة المتظاهرين هناك، ويسيرون حتى مجلس الوزراء ومجلس الشعب.. ألا تحدث المعجزة وتفتح لهم الجامعة أبوابها ليسيروا كما شاؤا؟ لو حدث هذا، فهو لن يكمل المسير.. ما أن يخرج من بوابة الجامعة، سينسحب بمفرده بإتجاه ميدان الجيزة ومن هناك سيركب الميكروباس إلى بيته، ويسير كل شيء عاديا وكأنه لم يكن يتظاهر منذ قليل وكأن شيئا لم يحدث..

يزداد ضجيج الهتافات كل لحظة، فبوابة الجامعة لم تغلق أبوابها كاملة وهو ما يعني أن بإمكانهم الخروج.. انتفاضة تسري داخل جسده، فهو لم يتوقع أبدا ما حدث من لحظات، إذ رفعه إثنان من زملائه على أكتافهم وأصبح هو في المقدمة.. أليس هذا غريبا؟ أن يترك زملاؤه كل هؤلاء ويحملوه هو الصامت طوال هذه المظاهره ويضعونه في الصداره؟

المشهد من فوق الأكتاف يختلف كثيرا عندما كان هو بالأسفل منذ لحظات.. عظام زميليه الذين يحملانه يحسها كالمسامير تنغرس في جسده وتؤلمه.. تهتز الدنيا أمام عينيه وكأنه سيغشى عليه.. تتداخل الصور.. صوره لأبيه وهو يحمله على دراجته في طريقهما إلى المدرسة وهو صغير.. أخته الصغيرة تمسك بكراسة الرسم وتطلب منه أن يرسم لها بعض الرسومات، ولا يفعل لها شيئا حتى تنهال عليه بالقبلات.. والدته تجلس في البلكونة وحدها تنظر للغادين

والرائحين في الشارع.. من أعماقه تتداخل الأصوات وكأنه يتحدث في فوهة بئر.. يرفع بصره للسماء ويحس إنه سيسقط.. أصابع تمتد إلى جسده، تغوص بداخله وتمنعه من السقوط.. ينتبه إلى نفسه.. ويفيق على ضجيج الهتافات وصورة تمثال نهضة مصر التي تهتز أمامه كلما تحرك زميلاه خطوة للإمام..

المظاهرة تتقدم ولم يعد يفصل بينه وبين بوابة الجامعة سوى بضع سنتيمترات.. يسير الموكب بفعل قوة الدفع من بوابة الجامعة.. يزداد اقترابه من كردون العساكر بالخارج ويحسهم كالتماثيل السوداء التي لابد ستنقلب إلى خيزرانات ومدافع مياة في لحظات.. جسده كله ينتفض ويحس بروحه تصعد إلى السماء وترتد إليه من جديد.. يشير لزملائه بيديه، تعلو الهتافات ويرفع هو لافتته.. يقف في سكون أمام العساكر المواجهين له.. ينظر لهم في تحد.. يثبت صامتا أمامهم.. يشير إلى زملائه بالتحرك.. ويتأهب لملاقاة مصيره، صامتا في جلد..

على موتها أغني

يسرى الغول. فلسطين

حزناً و جزعاً

على موتها أغني

*

وميض خاطف يلفني، يحاصرني، يكاد يسقطني أرضاً، طيف لسماوات عظام يظللني، يخطفني بعيداً وجسدي يرتشف غيوم المكان. ضجيج يعمر الصالة التي انحني في جذعها، جلبة نساء فاجرات تضرب جدران رأسي، همهمة لفتيات يافعات في انتظار الرقص على تهاويم الميت..

في صباي كنت ساذجاً كما أنا الآن، لكنني اللحظة أشد من ذي قبل، لم أدر كيف أفعل في هذا الحصار؟ فلم تكن الجلبة وحدها التي تخنقني، بل صوت أخواتي من حولي أيضاً، و زوجتي التي تجلس بقربي هنا. ساعة كئيبة هذه التي تزورني. اليوم بت مدركاً أنه عام الحزن و الجزع.

و على موتها أغني..

في الصالة ازدادت حدة الهمس و الصفير، ازداد الفزع و الخوف، بدأ الصوت يأخذ ارتفاعاً شاهقاً كأعمدة النور الباسقة، وقفت النساء واحدة تلو الأخرى للرقص على جسدي الميت، و عبر شقوق

الألم أنتصب تائهاً، أبكي فزعاً على موتها، أصرخ علني أتيـــه فـــي ومضة وجهها الغجري.

أدندن..

يوماً كنت صبياً، و كانت هي كذلك، كنت ساذجاً، فجّاً ولم تكـــن مثلي أبداً، تبعتها فاختبأت فأدركت الفرصة، بحثت عنها، تهـــت فـــي دروب المخيم، أزقته التي لا تعرف الاعتدال، و فـــي ثنايـــا الكـــون الرابض بي وجدتها، عثرت عليها، أهديتها خاتماً ورثته عن أبي، ثم اختفيت واختفتْ..

و عدنا نبحث عن كلينا، تهت في دهاليزي، ولم أهتد إليها، جلـــت دروب المنافي، مردوانات السجون، مشرداً مطارداً كما أشقائها الذين كانوا حلقة الوصل بيننا، و حين عدت كانت قد سافرت مع الضـــباب واختفت.

شبق الموت يؤرجحني..

في صباي الساذج كان وميضها يلفني، يخطفني من بـــين فلـــول الأطفال، نجري، ألطمها على خديها كما كان يفعل أبي بأمي، أصرخ بها كما يفعل بي إخوتي، وتصبر، ثم تهرب وأنا أتوسل إليهـــا بـــأن تعود، أرجوها أن تمكث معي على تلال الرمل الأصفر لكنها كأن لم تسمعني، وفي الصباح تعود، نلعب فيتكرر المشهد من جديد..

وكانت قد تزوجت..

هكذا دون أن أعرف، دون أن تخبرني، ودون أن أصفعها كما كنا قبلاً.

وجدتها تسير مع رجل أنيق، شاربه كث غير مرتب، كان يذكرني بأبي، بأمي التي كانت تكره الشارب الذي طلقه أبي مئات المـــرات، وعلى شاربه كانت تتكفئ، ضخم كما سرير الموت خاصتهما، رأيتها وقد كانت تحمل الرضيع بين كفيها، يغني ويبكي..

أغني وأبكي..

رأيتها ولم ترني بداية الأمر، لكنها عندما أدركتني، تشممت عطر الماضي، مساحة البوح فسقطت أرضاً، لحظتها لم أعرف كيف أفعل؟

هربت، نعم هربت أبحث عن مأوى ينجيني من هول الكارثة التي طوحتني.. كيف لي أن أنساها بعد ذلك؟ ونسيتها ثم عدت.
وعلى موتها أنتهي..
عندما ولجت منزلي وجدتها منكفئة على وجهها. ارتعدت فرائصي، هوت بي الدهشة، هل هي حقاً أم أنها ضرب من الخيال؟ ولم أكن اعرف أنها قد أغلقت قلبي بمفاتيحها الجميلة، حلمت بها ليلتها كما رأيتها لكنها كانت بغير ذلك الخاتم، صعقت ولم أسألها عن مكانه.
استيقظت من نومي و كان الخاتم في يدي، أعطيته لمجنونة جديدة تجلس بجواري الآن، وفي الصالة مع جلبة النساء سقط الخاتم أرضاً وسقطت معه أحلامي القرمزية..
أغني..
كانوا قد جاءوا بها جثة متفحمة ليلة أن فكرت بزيارتهم مع والديّ في المساء، ولجت الحارة الضيقة. كانت حدة القصف تروع السكان جميعهم، سرت تجاه الطريق الترابي الغائص بنفايات المخيم، وهناك كانت الجموع ترفرف حول أقبية الثكنة، سألنا وسألت عما جرى، ثم فجأة سقطت في موتي، إغفاءتي التي طوحتني أرضاً، كأنني لم أعِ ما كانوا يقولون، سقطت أرضاً وأنا أسمعهم، كان أحدهم يصرخ وقد غسل العرق جسده كحمامة طاهرة تغتصب السماء: لقد تهاوت مع صاروخ غادر صفع شارع المخيم بأكمله.. وانتهي مع الغبار.

*

ميت أنا
لكني على موتها سأظل أغنّي
وأغنّي
وأغنّي ..

مدينة الذقون الكبيرة

أسامة غريب عبد العاطي - مصر

ليلة السابع و العشرين من شهر رمضان المعظم لسنة (خمس وتسعون وأربعمائة و ألف من هجرة الرسول صلي الله عليه وسلم) الموافق (اثنين وسبعون بعد الألف الثانية من ميلاد السيد المسيح)، يعم أرجاء المدينة التي تزدحم بعشرين مليون من السكان هدوء غريب لم تعهده من قبل، البعض تمتم في الصباح أن الله قد أذن الآن، ولم يكمل بما أذن الله ؟ البعض اقسم بأن الملائكة قد نزلوا في تلك الليلة علي المدينة بأكملها وقد أذن الله، ولم يحدد بم أذن الله.. هل اتفق الناس علي شي ما! هل خططوا لشيء، هذا ما كان يشغل بال ملكهم.

كان الناس يأخذون إجازة طويلة بدءًا من اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان من كل عام وحتى آخر أيام عيد الفطر وذلك كي يتفرغوا للعبادة كما أدلي بذلك ملكهم، قبل أول أيام العيد لاحظ عسس الملك والبصاصون شيئاً غريباً لاحظوا أن ذقون معظم الناس قد طالت، دعا الملك إلي اجتماع عاجل ضم كل الخبراء والمستشارين من وزارتي الشرطة ووزارة الشئون الاجتماعية، قال خبراء الشرطة أن الأمر خطير ويجب أخذ قرار حاسم فيه حتى لا يستشري وتصبح فتنة تعم العباد و البلاد، أضعف خبراء الاجتماع من خطورة الموضوع وأرجعوه إلي عدة أسباب منها: ملل أصاب الناس، عدم وجود الوقت الكافي لتفرغ الناس للعبادة، توفير نفقات الأمواس

ومعاجين الحلاقة للفئة الكادحة من الشعب، علت أصـــوات الجـــانبين خبراء الشرطة من ناحية، وخبراء الاجتماع من ناحية أخـــرى كـــل يدحض رؤية الأخر ويعلي من وجهة نظره ولم يصـــلا إلـــي حـــل مُرْضٍ فقرروا عقد اجتماع آخر مساء أول أيام عيد الفطر المبـــارك، عقد الاجتماع في موعده المتفق عليه مسبقا، علت المشاجرات بـــين الجانبين مرة أخري خاصة أن خبراء الاجتماع الذين أكدوا بأن الناس سيحلقون ذقونهم صباح يوم عيد الفطر، لم يصدقوا، فلم يقـــم النـــاس بحلق ذقونهم بعد، ولم يصل الطرفان إلي حل يرضيهما معاً أو حتى يرضى الملك إلا أنهما اتفق علي عقد اجتماع ثالث وأخير للبت فـــي هذا الموضوع، وعقد الاجتماع ثالث أيام عيد الفطـــر، قـــررت فيـــه قيادات الشرطة بموافقة الملك القبض علي جميع أفراد المدينة ممـــن طالت ذقونهم وكانت هناك اعتراضات من الجانب الأخر بأنه قـــد لا توجد أماكن كافية لسجن كل هؤلاء.. لم يلتفت أحد إلي هـــذا الـــرأي البتة.. كان القرار واضحاً أن يتم القبض علي من طالت ذقنه أكثـــر من ثلاثة سنتيمترات وبالفعل فقد تم توزيع المساطر المدرجـــة علـــي زعامات وأفراد الشرطة المكلفين بعملية القبض علي أهالي المدينـــة وقال المدعي العام في حيثيات مشروع قرار القبض (إن من طالـــت ذقنه أكثر من ثلاثة سنتميترات تصبح عنده النية الأكيدة لإطالة ذقنـــه أكثر من ذلك ولذا فقد وجب القبض عليه حماية لأمن الوطن).

في صباح اليوم التالي تم القبض علي اثنين مليون مـــواطن بلـــغ طول ذقونهم ثلاثة سنتيمترات، لم يعرف الشعب إلي أين ذهب عـــدد الاثنين مليون مواطن إلا أنهم لم يعبأوا بالقرار، وكان طبيعيا أن يزيد عدد الاثنين مليون مواطن بالسجن إلي أكثر من ذلك تبعا لكثافة ذقـــن كل مواطن، وحسب الإحصائيات التي قام بها مركز التعبئة العامـــة والإحصاء سيصل عدد أربعة مليون مواطن إلي معدل طـــول ذقـــن ثلاثة سنتمترات كل يومين بمعنى أنه بعد مرور ثمانيـــة أيـــام مـــن صدور القرار سوف يكون بالسجن عدد ثمانية عشرة مليون مواطن، رغم ذلك لم يبال زعماء الشرطة ولا الملـــك فـــي تطبيـــق القـــانون بحذافيره حفاظاً علي الأمن العام وأكدوا لبعضهم البعض: سيرضـــخ

الناس وسيعودون إلي حلق ذقونهم إذا وصل عدد المقبوض عليهم إلي ستة ملايين مواطن علي الأكثر، بعد يومين كان عدد المقبوض عليهم بالسجن ستة ملايين مواطن تقريباً ولم يأبه الناس أو يكترثوا، لم يجد خبراء الاجتماع تفسيرا لهذه الظاهرة سوى أن هناك قوي روحية هبطت علي الشعب ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، طالبت قيادات الشرطة بحذف هذا اليوم من التاريخ الهجري، تسربت أخبار مفادها أن حكيم الملك الذي كان يعالج في الهند قد عاد لتوه ودعاه الملك إلي عقد اجتماع عاجل لتفادي الأزمة الخطيرة خاصة بعد وصول عدد المسجونين إلى عشرة ملايين مواطن بعد مرور أربعة أيام فقط، عقد الاجتماع السري سريعا مقتصرا على حكيم الملك وبعض الخبراء من الشرطة والاجتماع والقانون، وبعد عناء يوم كامل من المفاوضات الشاقة تم إصدار بعض القوانين من خلال مرسوم ملكي ألخص لكم بنوده في الآتي:

إطلاق سراح كل المسجونين، عزل وزير الشرطة، إصدار تشريع يقضي بتجريم حلق الذكور لذقونهم وبالقبض فورا علي من لا ذقن له، هذا وقد استثني القانون الخصيان في القصور وبعض الحالات الأخرى للذكور الذين لا تنبت لهم ذقون وذلك بشهادة طبية معتمدة من بيمارستان حكومي عام.

تم تغيير اسم البلدة فيما بعد إلى مدينة الذقون الكبيرة وذلك بعض أن أطلق الحاكم وكبار رجال الدولة ذقونهم.

ومضات

صالحة رحوتي .المغرب

١ ــ لمسة وحل من سجل الذكريات...

*** التاعت...**

وتواعدت أحلاف اليأس.. شلال.. ينساب إلى قلب أثخن بجراح تتوسل آلاما تنكأها.. هجمات.. شظايا هاتف نقال.. أسئلة تترى.. تتناسل.. حمم.. غضب يتهادى في حمق.. هذيان..

من تكون..؟ متى..؟

تتلاطم أمواج تعابير دبجت على عجل.. و تمتح من معجم حقد وسباب.. أحقاد معتقة.. وانفرطت في لحظات.. كلمات.. كلمات..

*** و تعجب...**

و ماء ينحدر على وجهه قطرات.. تناهت رنات.. لكن أياد كانت أسرع.. نظرات.. ابتسامات.. صخب الصمت..´مدى تنهش منها عمقا يتشرذم.. شذرات..

فاسقة.. فاجرة.. قالت.. من؟ متى؟

كلمات.. صرخات..

خطوات.. وغاب للحظات..

ابتسامات.. نكهة هزء.. استهجان.. أو قل حتى ضحكات..

شيء ما يمسكه.. انطرح على الأرض مسجى.. صورة عشق.. همسات.. وتناهت أصوات الحب مجلجلة تتبارى.. و كلمات منه مذكرة.. تمتح من معجم عهر.. أصوات.. أصوات..

طفل يبكي.. يصرخ.. والباب ارتطم.. والصورة تتضح منها الأبعاد رغم دموع تتفانى.. آهات.. آهات..
جلسة عشق من هنالك.. من زمان الأمس.. ولى..
لكن.. قد.. كانت هي أيضا..
لمسة وحل من سجل الذكريات..

٢ ــ حوار عبر الشاشات...

*** كتبت...**
"نتزوج..."
و نظرت إلى الشاشة تنتظر الأحرف والكلمات..
انتظرت.. ثم.. انتظرت..

*** و كتب...**
بعد لأي..."ليس بعد..."

*** و كتبت...**
"استهلكنا كل الأحرف و كل الكلمات.. كلها.. وحتى كل الأصوات..."

*** و كتب...**
"لكن الآتي لا نعلمه.. فلنهأ بهذي اللحظات.."

*** كتبت...**
"و الزمن..؟أسمع للأيام حفيفا.. تتصرم.."

*** كتب...**
"نسكته.. بالعشق.. كلمات.. صولات.. جولات.."

*** و كتبت...**
لم تتوقف.. استنفذت كل الأحرف.. كل الكلمات..
وأتاها الرد سريعا آنذاك...

*** كتب...**
"افتني أنت.. وأنا العربي أيجوز أن أتزوج من تتطارح حبا مع من لا تعرفه.. حتى لو كنت أنا.. وحتى لو كان ذلك عبر الشاشات؟"

قفل كبير

محمود عرفات . مصر

كان أذان الظهر يرتفع عندما وصل كبير المفتشين الى مبنى المديرية، بعد لحظات أخذ وكيل الوزارة يرحب بالرجل القادم من العاصمة ويطلب له القهوة، سأله عن مدة المأمورية فتذكر تعليمات الوزير.. لا تفصح، طلب أن يبلغه ببرنامج الزيارة فعاود التذكر.. لا تصرح، فتملص من الإفادة بكلمات مبهمة، قال باختصار أن البرنامج سيبدأ صباح الغد، وأنه عندما يحضر سيحدد اسم المدرسة التى سيزورها، بعد تناول القهوة استأذن فى الذهاب إلى استراحة المحافظة.

*

فى الصباح توجه إلى مكتب مدير المتابعة وطلب تجهيز سيارة فاستمهله بضع دقائق حتى يشرب الشاى، فهم أن مدير المتابعة يود إبلاغ المدارس القريبة، بعد نصف ساعة كانت السيارة جاهزة والسائق مستعدا للحركة، هَمَّ مدير المتابعة أن يرافق المسئول الكبير فرفض بحزم وأكد أن التعليمات واضحة، المرور بمفرده.

*

على المقعد الخلفى فرَدَ كبير المفتشين ورقة مطوية عدة مرات وأخذ يتأمل الجداول الملونة، طال انتظار السائق فأدار المحرك وسأل بأدب:

ــ أى مدرسة يا باشا؟
ذكر الرجل اسم المدرسة فتلونت ملامح السائق بالدهشة وقال وهو مصدوم:
ــ تعرف سيادتك انها فى حضن الجبل؟
ــ أعرف.
ــ إنها على بعد ساعتين.
ــ ولو.
داس السائق على دواسة الوقود بغيظ فاندفعت السيارة إلى الأمام وهى تصدر زعيقا شديدا.

*

بعد ساعة ونصف كانت السيارة تدخل القرية النائمة فى حضن الجبل، بعد دقيقة وقفت بجوار المدرسة، البوابة الحديدية مغلقة بجنزير غليظ معلق به قفل كبير، نظر الرجل الى السائق فى دهشة، لكن السائق بدا محايدا، واكتفى بأن سأل بعض الصبية عن منزل حضرة الناظر فلم يردوا عليه وتفرقوا بسرعة، أخذ الرجل يكلم نفسه وهو يدمدم بينما نزل السائق وأخذ ينظر إلى بعيد بغير اهتمام.

من بعيد ظهر رجل يرتدى جلبابا أبيض ويضع على رأسه طاقية بيضاء مزهرة ويجر فى قدميه بلغة صفراء، كان يمشى بوقار يتمتم بكلمات كأنها التسابيح، تتساقط بين أصابعه حبات مسبحة مئوية فى بطء يتناسب مع مشيته الهادئة.

*

ــ يا أهلا .. يا أهلا.
صاح الناظر مرحبا بكبير المفتشين ثم واصل:
ــ تفضل يا باشا.
وضع الناظر المسبحة فى جيبه وأخرج سلسلة مفاتيح، أدار واحدا منها فى القفل فانفتح، أزاح الجنزير ودفع البوابة فأصدرت صريرا

مزعجاً كأنها لم تفتح من سنة، سار أمام الضيف وهو يهتف بكلمات الترحيب، قبل أن يغيبا داخل المدرسة صاح:

ـــ الشاى يا بنت.

أدار الضيف رأسه فلم يجد بنتا ولا امرأة، عندما وصلا إلى مكتب الناظر، كانت البنت وراءهما بصينية عليها براد شاى يتصاعد منه البخار وعدة أكواب زجاجية نظيفة وقلة ماء غطت فوهتها قطعة من شال أبيض زاه.

ـــ هم الضيف بالكلام فحلف الناظر أنه لا كلام قبل أداء صلاة الجمعة وتناول الغداء فى المكتب، الجمعة.. جمعة من؟ استحضر الرجل ذاكرته وعصرها، أخذ يلملم تفاصيل الأيام الماضية ليتذكر متى صلى الجمعة الماضية، وفى أى مسجد، لم يكد يسأل نفسه حتى بدأ توافد المدرسين بالجلابيب البيضاء والطواقى المزهرة والبلغ الصفراء، أخذوا يرحبون به وهو يرد عليهم بشكل آلى، بحث عن مهاراته القديمة وشحذها، لبس قناع الجد والاهتمام وهو يفكر فى الجمعة العجيبة، عدد المتحلقين حوله أخافه، حكايات العاصمة عن جهامة الصعيد وصرامة أهله جعلته يبتلع ضيقه، قرر أن يبدو كرجل لا يهتم كثيرا بالتفاصيل، عندما هم بالكلام أخذوا يتناوشونه من كل جانب، دار الحديث عن فضل الجمعة، وفيها ساعة إجابة، ونوادر الخطباء، والخطب التى يلقيها الناظر فتهز الرجال وتملأ عيونهم بدموع الخوف والندم، وآه من دعاء نهاية الخطبة، واللعنات التى يصبها على رؤوس الكفرة ومغتصبى المسجد الأقصى، والرجل يفكر، هل يستسلم للجمعة الطارئة ويصليها، أو يعترض، هل يسمحون له، لو ضربوه هنا ما ظهر له صاحب، وقد يقتلونه، ويقولون: لم نره أبداً، هل تنتصر له الحكومة عندما يعود، فجأة لانت ملامحه وأبدل بقناع الجد قناع التبسط والتواضع، رأى أنه من الأفضل أن يحكى بنفسه ما حدث له.

*

المدرسون يعرفون الأصول، حديثهم مرتب وأفكارهم موزونة، لا يتدافعون للكلام ولا يقاطعون بعضهم بعضا، وحكاياتهم مبهجة أحيانا ومحزنة أحيانا أخرى، هكذا أحس الضيف الذى ما لبث أن اندمج فى الحديث وشرب دورين من الشاى المعتبر، بعد الدور الثانى انطلق صوت المقرئ يتلو القرآن، ظل الناظر فى مجلسه تأدبا إلى أن قام المدرسون يحثونه على القيام للصلاة وإلقاء خطبة الجمعة، بعد الوضوء انطلقوا جميعا، فى الطريق إلى المسجد كان الرجال يتوافدون بجلابيبهم البيضاء وطواقيهم المزهرة، ومعهم الصبية يرتدون نفس الملابس والملامح.

*

امتلأ المسجد بالمصلين، الناظر ألقى خطبة رائعة عن صفات المؤمنين استشهد فيها بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة، وختم الصلاة بدعاء طويل مؤثر علا فيه صوت المصلين.. آمين يا رب العالمين، بعد ختم الصلاة شد أهالى القرية على يد الضيف الكريم، فى مكتب الناظر جلس الجميع، حضرت الصبايا وعلى رأس كل واحدة صينية بها أطايب الطعام ومُدَّت مائدة الغداء، قال الناظر أنه أصر على أن يكون الغداء داخل المدرسة لينفى أية شبهة عن الضيف العزيز، بعد الغداء دارت أكواب الشاى وتواصل الحديث بين الضيف وأصحاب الفضل.

*

قبيل العصر استأذن الضيف فى الانصراف، عندما خرج من البوابة تذكر السائق لأول مرة، وجده على مقعده يغط فى نوم هادئ، نقر على الزجاج ففتح عينيه، أفاق وأدار المحرك، عندما بدأت السيارة فى الحركة نظر الضيف إلى السائق وسأله لائما:

ـــ صليت الجمعة؟

رد السائق بآلية:

ــ صليتها من يومين.

من بعيد لمح الضيف ناظر المدرسة وهو يغلق البوابة ويشد الجنزير الغليظ ويضع عليه القفل.

رحلة بحرية

أسامة الحويج العمر - سورية

يُغربلُ البحرُ شذور الذهب المنهمرة من طبق الشمس، كائنٌ حيٌّ يتنفَّسُ بالمدِّ والجزر... ويتنفسُ بهدوء...

وأحياناً يُصابُ بالصرع، يتمطى بتكاسلٍ على الشاطئ لنستمتع به، جسمٌ حي تتفرَّعُ فيه شرايينُ المرجان الحمراء.. كريات اللؤلؤ البيضاء، الأعشابُ الطويلة بدلالٍ تتمايل، أو ربما أثملها جمالُ المحيط، عالمٌ ساحرٌ يُذهلنا ببليغ صمته، عندما نسبحُ مع مخلوقاته لنغدو جزءاً منها، وكأننا جميعاً حلمٌ رائعٌ في مخيلة فنانٍ عظيم! الإبداع يغوصُ مع الأسماك والألوان والرؤى والأخيلة، تسبحُ الدلافينُ هنا وهناك... وأحدُها يحملني على ظهره، آهٍ ما أنعم ملمسَ روحه! ما ألطف ملامحه، كأنني أعتلي صهوة الحظ الأسعد كمية هائلةً من السكون الساحر ضُخَّتْ في جميع الأنحاء.

ننطلق ونطيرُ بأجنحة المياه التي أصبحت حلوةً حلوة، فقاعاتُ الهواء تصعدُ إلى السطح وهي تنبضُ... قلوبٌ طارت من فرط السعادة، ونشوتي بَنَتْ قواعدَ لها في القاع.

أحزمةُ ضوء الشمس تتسلَّلُ بغموضٍ كنورٍ إلهي يشعُّ على الجنة... أتأملها بذهول، أصعدُ إلى السطح بعدما أنهكتني الجولات الصوفية!

أستلقي على ظهر القارب الكبير الذي يمخرُ العباب بعزيمةٍ لا تلين

المحيطُ يحرثُ البذور الصفراء التي تتغلغلُ بين ثنايا الأمواج، لا تلبث أن تنمو مساند دقيقة لطبق الشمس الطائر، جناحُ الشراع الأبيض يخفقُ بإلحاح طالباً الحرية... لا يلبث أن ينتفخ بعدما استلقت عليه الريحُ مستمتعة بالمشاهد وهي تصفر!

فمُ المحيط المُزبدُ يمتلئُ بالقارب أينما كان عبثاً يحاولُ ابتلاعَهُ، اسفنجُ روحي غدا مثقلاً بالسحر الناصع البياض.

فجأةً رَنَّ جرسُ الهاتف، وعلى الفور اختفى القارب والدلافين والبحر الذي يتنفس بالمدِّ والجزر، والفقاعات التي تنبضُ كالقلوب وشرايين المرجان الحمراء، وكريات اللؤلؤ البيضاء، والرؤى والظلال، والسكون المضمّخ بعطر السحر. تربعتُ في الفراش محملقاً في الجدار قبالتي: أصبحت روحي قطعة اسفنج خالية تماماً من أي شيء.

فركتُ عينيَّ، نظرتُ إلى الساعة الموضوعة على الطاولة الصغيرة قرب السرير، كانت تشيرُ إلى الحادية عشرة صباحاً، نهضتُ مستمتعاً بلذة التمطي، حاولتُ التقاط بعضٍ من مِزَقِ النعيم الذي كنتُ أرفلُ فيه علّني أتمكنُ من إعادة رتقها من جديد، حاولتُ بمنتهى الإخلاص، لكنَّ ذاكرتي كانت تئنُّ تحت وطأة الواقع، ياإلهي: كأنني عبرتُ سماء الجنة على صهوة برق!!

عاد جرسُ الهاتف يرنُّ من جديد، اللعنة.. لن أرد.. أعرف تماماً من هو.. ألا يحقُّ لي أن أرتاح ولو ليومٍ واحدٍ من الأوراق والأضابير؟

الجرسُ ينخرُ أعصابي.. ينخرها، رفعتُ السماعة، كان حازم زميلي في العمل، قال بصوتٍ مرتفع:

ــ أين أنت يا رجل؟ المدير يسألُ عنك منذ بداية الدوام.

قلتُ له وأنا أتثاءب:

ــ سجّل لي إجازةً مرضية، أشعر بالتعب الشديد.

فصرخ قائلاً:

ـ هل هذا وقتُ إجازات؟ هناك الكثير من الأوراق التي عليك مراجعتها.. احضر في لحال.. لقد ثقب المديرُ طبلة أذني من كثرة سؤاله عنك!

ـ حسناً حسناً.

قلتُ له، أغلقتُ السماعة وأنا أشعرُ بأنَّ تجاعيد وجهي قد جاورتها خنادق جديدة، ارتديتُ ثيابي بتثاقل، أدرتُ أكرة الباب، نزلتُ على درجات السُّلَّم بهدوء، ما إن ابتلعني صخبُ الشارع حتى احترقت بقايا الجنة البحرية التي كانت تموجُ بداخلي بما فيها النسخة الكربونية، وعلى وقع الزوابع القنفذية لأصوات أبواق السيارات المتداخلة بعضها ببعض كشعث البروق، أخذتُ أحثُّ الخطا متوجّهاً إلى عملي وسط أمواج من الوجوه المقطّبة، بعدما امتلأ إسفنج روحي بظلام كونيٍّ لا نجوم فيه.

سلاسل سوداء ثقيلة

محمد محمد السنباطي ـ مصر

البلكونة تطل على الشجر. الشجر يطل على الطريق. وعم أحمد بعينيه العسليتين يطل على المجهول. تخلع ابنته نفسها من حضنه وتعطيه الفراغ. زوجه الدكتور يرسل إليها الـ "كلاكسات" الزاعقة من سيارته.

"فتك بعافية يابابا. ابقى تعال اقعد لك يومين عندى"

يغلق باب الشقة وراءها ويدلف إلى البلكونة، وعندما تعطيه وجهها وابتسامتها يُلوّحُ لها بيده المرتعدة دائما.

راح يتابع العربة وهى تختفى بين الشجر والمبانى، داهمته الوحدة وغطاه السكوت، أمام صف العمارات "عم سيد" الجناينى العمومى، يفتح الخرطوم على العشب، والشجيرات تنحنى تحت سطوة الماء ثم تنتصب طازجة مستحمة، ويكون الطائر الذى زقزق فى البكور قد غادر من زمن.

"وحياتك يا عم سيد هات لى عيش وجبنة وزيتون، خد قزازة الدوا دى هات لى أختها، وكمان شريطين كبسول زى ده، وعلبة حقن تمام زى دى وما تنساش السرنجات"

يرن التليفون وزيتونة سوداء طرية منزوعة النواة فى فمه، ذابت مع الرنة الثالثة، ابتلعها ورفع السماعة، ابنه يسأل عنه ويزوده

بالإرشادات الصحية ويطلب منه قضاء يومين عند فى الإسكندية.

"أنا عاوز حزان طبى جديد علشان الفتق يا علاء، الحزام اللى انا لابسه مش ولابد، شوف لى نوع أحسن، إنت جاى إمتى؟"

لا يطرق بابه غير قارئ العداد أو محصل الفواتير، ويوميا التومرجى، إبنه "عبد العزيز" المقيم فى نفس الحي يحضر إليه إذا غضب من امرأته، يترك لها الشقة والانفعال ويأتى إليه، يمكث عنده يومين آكلا شاربا حتى يجيئه صوتها عبر الهاتف:

"إنت لسة لاوى بوزك؟"

كأنما ألقت عليه سة ورد صابح!

يقفز واقفا ويقبل والده.

"أنا قعدت عنك يومين يابابا، اقى اعملها انت وتعال اقعد لك يومين زيهم عندى"

نامت يده على سور البلكونة، نامت ذقنه الخشنة على ظهر يده، كانت رأسه ثقيلة فأوقفت اليد عن الاهتزاز، إلا أن بعضا من أصابعه ظلت تختلج، القطة السوداء فى العشب المقصوص تختلق لنفسها ما يسليها، ريشة دجاجة، ظلت ترفعها وتخفضها وتدور حولها، تنام على الظهر وترفعها بأطرافها ثم فى خفة تلاحقها حتى أطارتها مع الريح، تتسع ابتسامته، قام وغمس قطعة جبن فى لقمة وبَسْبَسَ للقطة التى تحولت إلى كائن فياض بالانتباه والترقب، طوحها إليها فتلقفتها كلعبة، ثبتتها ولحست الجبن لحستين ثم عادت إلى الريشة المعابثة.

"يا بنت الإيه!"

كانت ابنته فى طفولتها البعيدة تصر على عدم تناول الطعام، وتحايلها المرحومة ويحايلها، لكنها لاتحب إلا القفز من على الكنبة إلى الأرض أو الوقوف فوق منضدة السفرة والنط فوق الكراسى المحشوة ذات السُّسَت القوية. وعندما أخذها الكرسى وسقط بكت أمها وحلفت يمين الله أن تبيع هذه الكراسى وتشترى غيرها.

"البنت كانت حتتكسر. بعد الشر"

يأتون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، تمتلئ الشقة بالضجيج والصـــخب والحياة، يأخذه ابنه علاء فى عربته الفيات ويشترى له ما يريد مـــن ثياب وجوارب وأيضا أدوية، يعرجان على مطعـــم أســـماك شـــهير ويعودان بالكابوريا والمكرونة بالجمبرى، وتنفتح الشهية وهمـــا فـــى الطريق تنهبه السيارة نهبا، تقوم الحفيدة الغالية بإعداد السفرة.

"أبوكى بيصرف كتير لما يكون عندى ياروز وانا معاشى أكتر من ألف جنيه!"

"ما شاء الله"

يتراجع عن التصريح المتهور خشية أن يتسبب فى تقلـــيص هـــذا الكرم من ابنه، يستدرك:

"أكتر من نصهم بيضيع على الدوا"

ثم... تجف روح المكان، تنسحب الحياة، تتشقق الأرض العطشـــى وتتيبس، فتسرح وتمرح فيها الفئران، يزهق من قعدة البلكونة فيدخل إلى التليفزيون المفتوح من صباحية ربنا إلى بعد العشـــاء ولا أحـــد أمامه، انتبه للفيلم التسجيلى عن معتقـــل جوانتانـــامو، اثنـــان مـــنهم يحيطان بالأسير الذى يرسف فى الأغلال، لماذا يقيدونه مـــن قدميـــه هكذا وهويسير؟ لاسبب سوى الإذلال، يميزونه بالبرتقالى ويتحـــرك كأنه أبو فصادة.

"ياولاد الأبالسة!!"

أخذته دوامة أفاق منها على مشهد مؤتمر صحفى، ضغط الريموت كنترول وجرَّ ساقيه إلى الحمام فأحس بالأغلال تقيده هو، تعجب غير مصدق ونظر إلى أسفل، إفى مقدوره أن يجرجر سلسلة ثقيلة مجدولة كهذه وهو ضعيف؟ آلمه الفتاق، ابتلع الكبسولتين فى الموعد، تأكد أن الحزام مثبت بالطريقة الصحيحة.

أصابع التومرجى تنقر على الباب، إنه يعرفهـــا، قـــام ليفـــتح لـــه وبصعوبة تمكن من جرِّ السلسلة المجدولة السوداء، تأخر فـــى فـــتح الباب.

"رجلىّ تقيلة قوى ياعم عبد العاطى"
فك الحزام وتأهب، فتح فمه على آخره عند نزع الإبرة من إليتــه، أعاد الحزام إلى موضعه. طلب ابنه على المحمول.
"أنا فى مشكلة كبيرة، مش قادر أجر السلاسل"
"سلاسل إيه يا والدى؟"
"أنا فى معتقل جوانتانامو"
"مش فاهمك يا بابا"
"إنت ومراتك تناموا ولا حاجة على بالكم، وأنا هناك فى جوانتانامو ومشكلتى أشكيها لكم"
"إنت بتقول شعر يابابا؟"
"شعر إيه وهباب إيه؟"
فغرت زوجته فاها: "وحياة ماما باباك ناوى يتجوز، بــاين عليــه بيعمل أهبل علشان يصعب عليك"
آلمه نعتها إياه بالاستهبال، اعتذرت وظل غاضبا، تهيأت له وسرى العطر من خلف أذنيها وفردت شعرها الذى يحبه.
"ماتكرريش الكلام السخيف دة عن بابا"
"أمرك يا عيونى"
وصعد إليها ولم يكد.. حتى انسعر الترنك
"أنا أبوك، مش جاى لى نوم، تفتكر ان اللى زيى يقدر يعيش لوحده من غير ونيس؟!"
انفجرت الضحكة الرنانة، أخذتها نشوة انتصارها:
"مش قلت لك؟"
"يا ليلة سودا، الله يرحمك يا ماما"
صلى الفجر قاعدا على الكرسى، بعد قليل أتاه صوت الطائر إيــاه فدلف إلى البلكونة وعطس فآلمه الفتاق، لكنه مــلأ رئتيــه بأنفــاس العشب النديان، بنشط الميدان شيئا فشيئا، وتسلم المصابيح ضــوءها الأصفر لشمس الصباح، هو على الكرسى العريض فى البكونة، عينه على دكانة فواز البقال، لمحه يرش الماء من جردل أمام عتبة المحل،

قرر أن يذهب إليه، قام متعافيا ولبس البنطلون والفانلة النصف كم المستوردة والكوتشى الذى لم يلبسه ولا مرة منذ اشتراه له ابنه، ضرب الأرض بقدميه ضربتين "آخر تمام"، أغلق الشقة وأسلم قدميه للرصيف ثم عبرُ الأسفلت وسار، نسى السلاسل وألقى بنفسه بين ذراعى فواز الذى زعق:

"ياخبر ابيض، عاش من شافك يا راجل"

وأقسم أن يفطرا معا فأكلا بشهية مع طفولة الشمس وطراوة الصباح، كان يضحك مقهقها خصوصا بعد أن أنهى الشيخ محمد رفعت تلاوته الصباحية من إذاعة القرآن الكريم.

"عاوز أتجوز ياسى فواز"

"من حقك"

"عاوز واحدة تكون عفية، مقبولة الشكل وبنت ناس"

وحدثه عن معاشه الكبير ولم يقل له أن نصفه يذهب على الدواء، حدثه عن الشقة الواسعة وابتسم له بعينيه العسليتين.

"طلبك عندى، انت شايف الشباك الأزرق؟ بُص، فى الدور الخامس علوى، هى عايشة هنا مع أمها وأخوها اللى عاوز يتجوز فى الشقة، فاهم؟ جوزها مسجون، مخدرات، المهم القاضى طلقها منه"

"مش حيسبب لى مشاكل لما يطلع؟"

"يطلع مين يابا؟ خليك قاعد وحتشوفها لما تطل من الشباك"

"حلوة؟"

"قمر اربعتاشر، وعندها سبعة وعشرين سنة، وعندها طفل"

هرش قورته ولم يعلق.

بعد أن زارهم فواز وحدثهم عن العريس تم التعارف بالتليفون، حكى لها عن أولاده ومناصبهم: المدير والمهندس والمدرس وزوجة الطبيب، وعن تاريخه الوظيفى قبل المعاش، سألته عن سنه فصارحها: "اتنين وسبعين"

هل سمع شهقتها؟ سألها بدوره فقالت متباهية: "سبعة وعشرين"

"يا محاسن الصدف! نفس الرقمين بس الآحاد مكان العشرات"

"آه، الدنيا مقلوبة"

إهى تقصد شيئا؟ اتفقا على الشبكة وأخبرها أنه لن يغير العفش الذى عنده سوى الستائر وسيدهن الجدران، ويمكنه إعادة تنجيد المراتب والألحفة والمخدات ثم يأتى أهلها إليه للاتفاق النهائى.

"أهلى الذين سيأتون إليك؟ علشان خاطرى تيجى ولو مرة واحدة عندنا تطلبنى من أهلى"

"انتِ عاوزة تموتينى؟"

شهقت أمها: "السلم يموته؟ أمال حيتجوز ازاى؟"

لم تمض عشرة أيام حتى كانت عنده، لم تجلب معها سوى ريعان شبابها وأشيائها البسيطة، وكانت الحرب قد قامت بينه وبين أولاده مذ علموا.

وقفت العربة أمام مدخل العمارة ونزلت ابنته التى قال لها زوجها: "أنا مستنى هنا"

صافحت والدها بفتور واندفعت إلى دولاب أمها، فتحته وأخرجت ملابس المرحومة، حملتها كومة فى ملاءة وغادرت وهو واقف يرقبها فى ثياب حدادها.

"مستعجلة ليه يا بنتى؟"

"أنا مش بنت حد، الله يرحمك يا ماما، ما كنتيش تستحقى كدة"

أحكموا المقاطعة العامة ومع ذلك تلاشى إحساسه بالسلسلة الثقيلة المجدولة، بل إن حركته صارت أسلس، يده ترتعد قليلا ولكن هذا لن يعيبه، قبل عقد القران كتب لها نصف الشقة بناءً على إصرار أمها، وكان كل صباح يخرج إلى محل فواز حيث طفولة الشمس وطراوة الصبحية، ويضحك ورأسه إلى الوراء وعيناه معلقتان فى شباكها العالى ليلمحها، عيناه ما تزالان سليمتين بل والعسل فيهما ما يزال مضيئا، أما الحزام فلا يخلعه إلا فى الحمام ليقضى حاجته، فهو ليس فقط حول وسطه وإنما من الخلف للأمام من تحت، يخلعه أيضا عند أخذ الحقنة وهى التى تعطيها له منذ زواجهما بدلا من التومرجى، وقد تأكدت يقينا أن الـ... لن يحدث أبدا وإلا راح فيها.

أتت إليه، إذن، وحملته على كفوف الراحة، وتنفس أخوها الصعداء، فى اليوم السادس جاء إليها ابنها من عند جدته للمرة

الأولى فاحتفلت به وقدمت له بعض الحلوى فوضعها فى جيبه، دلف الولد إلى البلكون مخرجا نصفه العلوى، وقدماه على الكرسى، فزعق فيه ووجهه مقلوب، امتثل ودخل ليجلس على كرسى أمام التليفزيـــون لكنه ثبت قدميه على قدم الترابيزة محركا الكرسى للـــوراء والأمـــام فصاح فيه:

"اقعد كويس!"

"أنا رايح لجدتى يا ماما"

سارع فى الرد: "يكون أحسن"

صفق الولد الباب وهو خارج فثار: "ابنك حيهد الجدار"

سكبت عليه العتاب دونما انفعال:

"ماتقدرشى تستحمل ابنى عشر دقايق؟"

"يقعد زى الناس"

"انت أب يا حاج أحمد ، ماتنساش"

قالتها ونهضت لتعد له شاى العصرية وقلبها يتقطـــع، عـــادت لـــه بكعكتين فى طبق على صينية.

"ولادى ما بيسألوش عنى، مخاصمنى بسببك وكما مش عاجبك؟"

"إحنا حنبتدى المشاكل من دلوقت؟ تعال نقعد فى البلكونة نشم هوى العصارى"

"الولد وحشك عاوزة تبصى عليه من الشباك؟"

"عيب لما يوحشنى؟"

يده ترتعد وهو يضع الكعكة فى فمه، قامت وفتحت باب البلكونـــة لتقف وحدها ما دام لا يريد أن يرافقها، ضرب صوته ظهرها:

"اقفلى الشباك أحسن الناموس يدخل"

"ناموس إيه بالنهار؟"

ظلت واقفة وعيناه تجلدانها، كان أولاد يلعبون الكرة فـــى جانـــب الميدان الهادئ، ولمحت ابنها بعيدا عنهم يتقافز كعصفور، ثم توقـــف وظهره إليها، فتح ساقيه مُشَكِّلا مع الأرض مثلثا متساوى الأضلاع، انحنى وانحنى ومؤخرته إليها، رأس المثلث، حتى جعل وجهه بـــين ساقيه المفتوحتين واستطاع من بينهما أن يلمح أمه فى الشرفة، كانت

رأسه إلى أسفل وكان يخمن أنه ســـيرى الصـــورة مقلوبـــة، أراد أن يهتف من بين ساقيه:

"حبيتى ياماما!"

لكنه فوجئ بزوجها يمسح وجهها من الكادر ويغلق النافذة.

تأكد الولد أن الصورة مشوهة تماما.

احتراق

عبد المنان إسماعيل. العراق

(١)

تلكم عوالم أخر، لا شأن لها بها، وذلك النور القمري، المنسكب في الخارج، على ذؤابات الأشجار، وأعشاش العصافير المطمئنة، ما عاد يحرك فيها طمأنينة الغرق فيه، مثلما كان في أمسيات بعيدة، لم يعد يحملها أي غروب، بعد آخر اشراقة شمس حملت رَجُلها بعيدا، وألقت جسدها بقوة على حديد الأرجوحة العارية... وحيدة.... منذ أن غيبه الشارع ومحت الريح آثار خطواته... التجأت في بعض الأمسيات إلى أحضان الأرجوحة ... بلا وسائد ولا متكئات.... تركت الفراغ الذي كان يشغله ، وحين التمعت لحظة وجوده في ذاكرتها اتكأت عليه.. كان الفراغ يهبط بها في غيابة زمن مخادع... لم تستشعر أنامله وهي تداعب كتفها... تضعها وإياه في عذوبة الحواس المتيقظة... أصبحت حياتها، عزلة زائفة وإطلالتها الواهية على الأفياء الوارفة، المنتشرة على بقاع العالم ، والمحمولة إليها قسرا بين جدران الحجرة ، ما هي إلا حلم ملفوظ بازدراء خارج ملكات أحلامها المتخثرة... حلم يبخره السكون المقلق، ما إن تطفيء جهاز التلفاز ، وتلقي بجسدها اليافع في برودة السرير، تتقاذفها أحلام مختلفة... نصف متيقظة... مُترددة.... نهاياتها مُغلقة كإبريق شاي بلا فوهة... تضطرم تحته نار مستعرة... تتقطع بين الحين والحين... تنجذب هي إلى قعره، تبقى تدور... وتدور ، حتى يغلبها

الكرى ، يطوف بها خارج الزمن في متاهات مرعبة.... يـرفض أن يمنحها حلما جميلا تعرفه...

تلفظ ذاكرتها في الصباح كل الرؤى... ترنو إلى أحلام الإبريق المولعة بالدوران، المحاصرة بين الغطاء المحكم، والفوهة المسدودة.

وهي تقف أمام غلاية الشاي في الصباح، ترقب البخار ينـدفع بجرأة وحرية من الفوهة، تفكر؛

" لو كان لإبريقها فوهة صغيرة تخفف الضغط المتزايـد فـي داخله ، تلقي بأبخرته الرطبة علـى الجـدران والمرايـا والألبسـة المهجورة... ترطب جسدها، تفتح المسامات المسدودة أمـام متـنفس دمائها ".

تبلل شفتيها ، تضيف مقدارا من الشاي الجاف تتمتم " حلم آخر بلا فوهة! " .

دقت ساعة الجدار مُعلنة بدء صخب الطفلين على المائدة... دقة تمقتها منذ زمن بعيد... يتأكد حضورها كل يوم، عندما يتدلى عقربها الكبير على المنتصف كسهم يهبطه القدر فوق رأسها... يمعـن فـي اختراقها كل يوم... في نفس الوقت، وذات الساعة، دقة منفردة، تعلن مضي نصف ساعة على استيقاظها، والرجل المسـتحم تـوا بمـاء بارد... يقعد قبالتها، تفصل بينهما أكواب الشـاي وأرغفـة الخبـز وثلاث بيضات مسلوقة وكأس ساخنة من الحليـب، وإنـاء السـكر، والمملحة، وإبريق الشاي... تقعد أمامه متململة، تتشـاغل فـي لـم أطراف ثوبها الزاهي... حذرة من البوح بما شـغل فكرهـا الليلـة الفائتة، بعد أن غلبه النعاس إلى جنبها، وغمـر الضـوء الأخضـر نصف وجهه...

" ما زال ضوء الحجرة، كما اختاره ، يسيل خضـرةً ، تجاهـد عشرات الأحلام المبتورة في لججه ، تغفو تحت سـياطه العذبـة.. المؤلمة.. كل ليلة. "

ليلة أخرى انقضت، كمئات الليالي المدبرة، منذ انحنائـه علـى الطفلين النائمين، يقبلهما... يتراجع ، وهي معه... يتوقفـان قـرب الباب الحديدي ، يتجاذبان حقيبة الملابس... تتشبث بذراعه... تلحـظ

أكتواء وجهه بلفح لون القميص الكاكي... تنبهـر، فتبقـى ملتصـقة بـه....

يفيء الغلامان بثوبها الأسود ، يلحظان ذهولها قـرب البـاب ، ينتظران توصيتها المتكررة كل يوم.... تبتسم لهما ، تلتمـع عيناهـا بالضوء المنسكب من بين أوراق شجرة الزيتون القريبة :-

"اصرفا اهتماميكما إلى المعلم... عُودا بعـد انتهـاء الدراسـة مباشرة إلى البيت ."

تفتح الباب، تستدبر نظراتها الملل الملتصق بظهريهما أثر كـل خروج... تتابعهما إلى نهاية الزقاق، حتى يختفيـا عنـد المنحنـى، يعاودها إحساس قديم ظل يؤرقها بأن جـزءا منهـا قـد غادرهـا.. فتضطرب.... تنبثق في الفراغ رأس حليقة وكف سـمراء ملوحـة ويلتوي عنق يمنحها ابتسامة دفينة توحي بالكثير ونظرة متسـارعة، تخشى أن لا تفي بوعدها.... تصفق الباب بشدة ، تلبث فـي مكانهـا تحت أطياف الضوء والظل المرتجفة، المنطبعة على جسدها كنقوش أثوابها المهملة... تُرخي جفنيها... تتهيأ لإستقبال اللحظة المُرتدة.... تستشعرها... تسكن في متاهات الاستعادة الدقيقة للأشياء.... تعـدّل ... تُغيّر من وقفتها... تهفو لإرتداء ذات الثوب المهمل الذي كانـت ترتديه ذلك الصباح، لكنها لا تقوى على تفتيت الحزن الذي يتشحها. تصيخ... تبحث في جدران المكان وأشجاره وفي صفاقتي الباب عن الكلمات التي امتصها الزمن... تلتقطها بحبور:

" حبيبي ، لا تسافر اليوم... غدا سافر "

أحست بالندم والخذلان لاختيارها وقتا ميتا للنطق بها، ويده تمتد لتشرع الباب... يرمقه الشارع، يتلهف لإحتوائه... تترددُ عنقه بـين الشارع الهارع إليه من فتحة الباب وبين الحجرة السابحة في خضرة المصباح ، إخترقت نظراته كل ما خبأت من كـلام، توهمـت بأنـه سيلقي الحقيبة عند قدميها، لكنه قال:

– اعتني بالطفلين، وبنفسك حتى أعود. ربما تكـون إجـازتي المقبلة أطول .

مضى ملّوحا بعد أن استوعبت نظرتَه المطمئنة، وابتسامتَه التي شتتها الطريق، والتي تحاول هي كل يوم جاهدة أن تلمها، مـذ عـاد مستلقيا في أحضان السكون التام والدائم... مودعا أنفاسَه في مجهول لا يستطيع أحد حياله شيئا، ولا تملك هي إلا أن تذعن له .

(٢)

لما إرتفع نبض جسديهما فوق السرير، وتثاءَبت من نومها يقظة العطش الطويل، قالت: " أطفيء النور"

عمّ الغرفة ظلام دامس، أحست إثره بأن العيون الخُضر المُسالة من المصباح والتي ترقبها ببرودة قاتلـة، تحـاول إيقـاف نزيفهـا المكبوت وتقطع حلمها الجديد قد تلاشت... ورويدا... رويدا، أبعدها رجلُها عن الزمان، فتوارى الحاضر في طيات الفراش اللينة يتـدفق في شرايينه باستجابة طيّعة، تحت ضغط يتزايد ريثما تحفر اللحظات المتولدة مداها العميق في داخلها وتفيقها من أحلام ماضـية وابتعـد معها الرجل في حاضر يمتلكه وحده.

" فيما استيقظ رجل ميت في حاضرها، من مكان بعيد... يسعى إليها، ينفض ما علق به من تراب "

اعتدل رجل السرير نافضا الغطاء... أشـعل النـور الخافـت، وأشعل لفافة... نظر إليها مغتبطا، وزفر:-

"لست بمفردك.. الضوء الأخضـر لا يناسـب غـرف النـوم، سأغيره بمصباح آخر:

لم تُبْدِ رأيا... كانت تهبط بخدر في لذة الهدوء الزاحـف علـى جسدها، والذي بدأت تستطعمه من جديد، لكن يدها امتـدت لتسـحب الغطاء فوق صدرها العاري، المضغوط تحت سـيول نـور باهـت محتج... همست مرتجفة وذراعها تغطي عينيها:-

أطفيء المصباح... هذه الليلة"

دفعة واحدة غاب الضوء الأخضر في قوقعة محكمة... حفرة... زنزانة؟

استسلم الجسدان لعطش السرير... غابا في أنهرهِ ، حلقا في مراياهُ الداكنة، نام الرجل بعد أن أنهكه التحليق، وبقيت هي تحاور الظلام الكثيف... تتلمس الواقع الجديد ترسم أبعاده... أثارت حواسها رائحة عقب اللفافة... مدت ذراعها من فوق جسد الرجل... تلمست منفضة الرماد، ضغطت عقب اللفافة المحترقة، وفتتته داخل الصحن... أرادت أن تسلم نفسها لخدر النشوة المنقضية وتذوب في أحضان العتمة، لكن شيئا أيقظ فيها حمى هلع لا ينسى... فركت إصبعيها اللذين أمسكا عقب اللفافة، ثم مسحتهما في حافة السرير... استدبرت رجُلها النائم، وأحاطت وجهها بكفيها... حاولت أن تتبّع اللحظات المنقضية قريبا، لكن رائحة عطاب قوية... بعيدة، تأبى أن تفارقها، جعلتها تتلوى في مضجعها... يضج في داخلها عويل طويل ، وصراخ مذعور... تلتصق برأسها النظرة المجتزأة آنذاك، تغور في أحشائها... مزقاً آدمية بلا معالم... بقايا ملابس عسكرية محترقة... تغيب عن الوعي، يزحف إليها الذبول، لكنها تستفيق من صدمتها لتضم طفليها، تتقوقع معهما داخل الدار، ترقبهما ينموان... تمنحهما الذبول الذي يعتريها، قبل أن يقرر رجل السرير إيقافه منذ هذه الليلة...

كانت الأيام والسنون تتلكأ في مسارات لا تُفضي إلى شيء ، زيارات مبرمجة لحقول الأجساد الهامدة والألواح الحجرية الحافظة لتواريخ الولادة والموت ... تلك الزيارات التي كانت توليها إهتماما كبيرا بصحبة الطفلين ... أعوام ، وأعوام خلفتها وهي تستسلم للوحدة، ولصعوبة العيش بما يشبه استكانتها الحاضرة للظلام، لكن عينيها بعد أن إعتادته، عثرت على دبيب حشراته الفسفورية على الجدار تنتقل ببطء وبقفزات متوازنة في شكل دائري، وبكثير من اللامبالاة، للإحتراق الزمني.

يستيقظ الرجل المضطجع قربها.. يُطوّقها بذراعه:

"هل أنت يقظة؟ .... نامي"

تحس أنفاسه على عنقها، فتستدير مغمغمة، مخلفة الحشرات المعلقة على الجدار تجاهد الزمن، تحصي الأنفاس.... تركن

للطمأنينة التي احتوتها، والراحة التي دهمتها، قبل أن تستنفد وسائلها وقواها في تربية الطفلين، وتلبية احتياجاتهما المتزايدة، ولتبر بوعدها الذي لم تتفوه به للراحل ذات صباح، وهو يوصيها:
" اعتني بالطفلين، وبنفسك "

والى جانب كل ذلك ها هي تحظى بأحلامها الهانئة، التي ظنت أنها لن تتحقق أبدا، مما حمل الهدوء إلى أنفاسها، والخدر إلى جفنيها، فتغط في نوم عميق.

فجراً ، تزقزق العصافير الجذلى على أشجار الحديقة من جديد... تتفتح الحياة في ظواهر الأشياء وبواطنها، تستجيب للأشعة الأزلية، الزائلة كل مساء... ترق نسيمات الهواء، يذوب الماضي أو يكاد في لجج الحاضر... يستفيق كل شيء... هي... الرجل... ضوء الحجرة ... شجرة الزيتون... الباب الذي يتنكر للآتي من ماض مدفون... الطائر الهرم... المنهك... المفعم بالأمل... الممتلئ ألما... المحترق شوقا ولهفة... المغيّب في باطن الأرض، غصبا وزورا. تضطرب الحشرات الفسفورية داخل إطارها، تعلن تخليها عن احتساب الزمن... يختفي بصيصها... تتهشم كل أباريق الأحلام... تتداخل الأفكار والحلول تقر بعجزها عن تكييف الحال... يستحوذ الخواء على عقلها، يشلها الألم، إذ تتلقف النبأ المتسلل من صفاقة الباب الحديدي؛

عاد الرجل المستحم بماء بارد ذات صباح... لمّ أشلاءهُ المحترقة... استعاد كفا لوحت عند المنحنى، ونظرة مطمئنة أوفت بوعدها ، وعندما صده الباب ، وحمل الضوء الأخضر جزيئاته خجلا، وغار في الأسلاك... تحامل على نفسه وشق بجناحيه الموهنين طريقا إلى الصحراء، يناجي ذاته المحشورة إيهاما في شق الأرض... يرثي الآخر المجهول يعزيه، يتجرد من الزمان وأبعاده النكراء .

حين صحت من هلعها، تيقنت أن كل شيء يحترق... الحاضر... الماضي... الأحلام... كل شيء أصبح محض رماد.

الطائر الذي هرم... القائم من الموت... حط في صحراء الأجساد الصامتة، يطالع الكتابات المحفورة على شواهد القبور، يبحث عن الذات المطمورة في القاع، يصحو من صدمة الباب الذي صَدّهُ ، المغلق إثر خروجه منذ أمد بعيد.... لم يكن ممتلئا بالغضب، كل ما يعتريه اضطراب قاس... قالوا له :

"لا تغضب... المهم أنك حَيٌّ " ..

أجابتهم عيناه الممتلئتان برماد المحاجر المحترقة:

"الغضب مذموم، لكنه جذوة الروح المستنفرة، عند مقارعة محنة، أو الإحتجاج على قهر"

وقال لهم بلسانه الذي فقد مذاق الأشياء:

" الغضب لمن؟ وعلى من؟"

وفي صمته كان غضبه عنيفا، ينوح ، يطلق الآهات لأجل شيء خفي عليهم، أثار في حلقه حرقة أغفلت سنوات العذاب الدائم في الأسر؛ الراقد في لحده "هو"... المستعير لاسمه وميلاده... المطعم لديدان الغير... ذاك المسافر الذي جاء به تابوت واهم ليكون الحاضر في حياة عائلته لما كان هو متواريا في أقفاص الموت الغائب... هذا الرجل المقيم... المفعم بالسكون... الصامت المجهول. سينكره الجميع بعد أن هدهد الحزنَ والأسى في مهجهم... ألقم الحفرة الشرهة جسده، ليكون عونا لهم ومستنقعا لدموعهم.. هذا الآتي المذكر بالوعود، الضائع بين الشواهد والأمنيات، ينتظر منه شيئا، ولا شيء لديه غير الغضب يجزي به رقاده الطويل الزائف وصمته الذي فضح.

طافيا كان يقف عند حافة القبر، يرتمي ظله على اسمه المحفور في صخرة ملساء تنبثق من التربة.

(الصخرة الحاسبة للزمن تقرر مضي خمسة عشر عاما على مكوثه في دهاليزها المعتمة!!)

شاهد زور! أية نار يكتوي بها الجسد المحشور غصبا في أديم ينكره؟!.. هل يحلم بالانسياح إلى صحراء تأنسه ؟ يعرفه فيها

الزائرون ويعرفهم... أ لِلجسد الموارى رؤى وأحـــلام؟ ربمـــا كـــان رقاده الطويل الصامت يبيح له أحلاما أكثر يقظة من أحلام الـــروح الحبيسة في الخلاء؟!

أراد أن يوقظ العظام من سباتها... أن يدرك ما الـــذي يـــؤرق الموتى ويعذبهم؟ قال لرجل القبر الهادئ:

"جئت لأنسى كل ما لقيت من حزن ونكد... أتسول دفء أيامي التي ولت، وأنظر سني عمري التي تلاشت وَضُـــيّعتْ فـــي القهـــر والامتهان... عشت بألف ألف قلب دام، مؤملا أن أعود وأجدهم فـــي انتظاري، معتقدا أن بامكانهم أن يخففوا عني الوحشة والألم ويجتثـــوا من نفسي الوهن الذي حاق بها... ما كان في انتظاري احد!، وفراغ السرير الذي أخليته غصبا وجدته قد ضاق برجل آخر"

تفرس في الإستطالة المحدبة، المقيدة بين صخرتين.. خُيّل لـــه أن أشعة الشمس تستقطب الروح المهومة حول الجسد الهامد، تستلها من بين الأحجار والتراب مثل ضباب داكن أو هالة نور لا تلتمـــع... تخف، فتطفو كظل ممّوه ينتفض من قاع الحفرة، ينتشر على مساحة القبر، يسفح في وجهه التراب ويدمدم:

" أنت ما ذقت وحشة القبر... لم تسحقك ظلمته... مـــا عانيـــت غربة المستقر الأخير"

انساق وراء رجل القبر... توسد الثرى... تمنى:

"أنا يا موت متعب... منفي خارج الحياة... أحيـــا مرغمـــا... وددت لو أهجع هجعتي الأخيرة، بدلا من حيـــاتي الخاويـــة... أمـــا أحلامي؛ فوهم أجوف، ومحض فراغ يعجز عن بلوغ ما في المـــوت من سكون"

طأطأ رأسه متطامنا، وجد أن بامكانه أن يحيل المستحيلات إلى ممكنات. رفع رأسه:

"ما حظيت بعزاء... لم أكن في قبـــر يُـــزار.. كانـــت المـــرأة تأتيك... تقضي عندك الأوقات، تؤنسك... تتحدث إليـــك... تفضـــي إليك وتشكي ، فيما قضيت الأعوام أتقصاها فـــي أحـــلام متكـــررة

بلهاء... فعلام تغبطني؟ ما مدى تأثير الموت الكامن فيك؟ اذا كانت الحياة محض أحلام"

مزق سكون الموتى، قهقه الظل المموّه، وصرّح!

"المرأة؟! منها يبتديء الحلم واليها ينتهي، وبها يعود، تلك ذات العينين الواسعتين الحلوتين.. حقا كانت تؤنسني... بلهف الموتى الخابي أنتظر قدومها وبعطش الصحارى الملتهبة أتلقف دموعها وأرتويها... كم اشتكت لي؟ وأنا عاجز عن الفعل مثل طائر مكبل.. أدرك الحقائق كلها، لكني أعجز عن التأثير فيها... ما نفع هذا الإدراك المقيد؟"

كادت الشمس تغيب... بيسر أدرك الطائر الذي هرم ذاك، فما أحوجه إلى ملاذ في الليل الثقيل يبحر فيه مشتعلا إلى أحلام تهفو بداياتها إلى المرأة، وتتسع لتضج وتصخب فيها... احتج متشككا:

"في وسعنا الكثير مما نحلم به.. لا تقصر أحلامنا عليها"

توقف عن الإحتجاج وأقر:

لكنها هي من يزجي الرجل أحلامه... هي الحلم الذي يبهر الرجل، فيكتوي ثم يشتعل

انحدر قرص الشمس في لحد السماء، اختفت كل الظلال، وطمست الكتابات على الصخور... غار الظل المّموه في الأعماق واضمحل النور، وقبل أن يستعيد الراقد كامل سباته همهم:

"أنت تدرك مغيب الشمس، وأفول القمر، لكنك تقصر عن بلوغ الحقائق، محجوب عن كامل الإدراك... للحقائق منبع شفيف ورائق، لا يدركه الأحياء... سيشع كامل الإدراك في روحك، عندما تصحو من سباتك الممجوج... سبات الأحياء الغافل"

ما بين الاثنين، أكثر من خُطوة تُوقظ السبات، تعيد للأشياء منبعها الرائق، تزيح الفوضى العارمة، تريحه من عناء التيه المضطرب... ما بينهما غير استلقاء هادئ يفك الروح من أسرها، وسوى إغماضة جفن دام ؛ تمد البصر إلى ما لانهاية، تعيد الزمن المضيّع، تصحح مسارات التوابيت الخطأ ، تعيد حقا أُستُلِبَ منذ خمسة عشر عاما.

تكاثفت ممالك الظلام... نبحت كلاب المقابر الجائعة تطلب المزيد، تعرّت النجوم في كبد السماء، فبانت مثل نساء جميلات يرتعشن جذلا وهياما، ينبتن في فم الموتى ورودا، يهبطن من عليائهن فوق الأجداث.. يهبنها شطآنا لا نراها.... يسعى إلينا موجها... يتفجر في الأحداق أحلاما لا نقدرها... يطالها الموتى المتيقظون أبدا... تغرينا أن نهجر القوقعة ونلحق بهم في دنا الصحوة التامة والإدراك المكتمل.

من يرغب التيه في فوضى الأحلام؟ أو الاحتراق خلف الأبواب، من يحب أن يذوب في شعاع الضوء الخافت؟ أن يحيا بلا توقع... من يريد أن يحطم القيد ويخلص؟ ليصمت، وينتظر، فالشطآن تسعى، والموج قادم، ولكلٍ نصيبُهُ من الاحتراق.

الدفء

فرج مجاهد . مصر

استقبلتنى العتمة والخوف والبرودة حين فتح الباب ودخلت، لكننى استجمعت شجاعتى قبل أن تنفرط، وضعت حقيبتى بجوار الحائط ورحت ابحث عن أعواد الثقاب لأشعل شمعة، أو اللمبة نمرة عشرة التى توضع فى المطبخ على مسمار فى الحائط، كنا نضع علبة الكبيرت على منضدة المطبخ جوار الحائط، تحسست المنضدة ولكن يدى اصطدمت بكوب زجاجى فسقط وتهشم، ها هو الثقاب، أشعلت الشمعة خوفا من أن تسقط زجاجة اللمبة من يدى وتتكسر، خلعت معطفى المبتل والحذاء والشراب ورميت نفسى على السرير مكورا جسدى طلبا للدفء فى هذا الشتاء القارس، كنت قد وقفت على قطعة الخيش أمام الباب ودعكت قدمى جيدا لأتخلص من الطين العالق بحذائى، على الرغم من استمرار المطر والبرودة إلا أننى أحببت أن أنفذ تعليمات أمى التى تتعب فى شغل البيت كثيرا ولا تطلب منا إلا أن نحافظ قليلا على نظافة بيتنا، كنت مستمرا فى طرق الباب، ولكن الباب لم ينفتح، وانفتح باب جارتنا أم طارق وصاحت بى:

ــ لا يوجد أحد بالداخل، خذ المفتاح وانتظر أخواتك سيأتين بعد قليل.

سألتها متوجسا:

ــ أين أمى؟

= ذهبت للمستشفى ومعها أبوك.. لا تخف.

سحبت البطانية فوقى، لملمت أطرافها تحتى، أشعر بالدفء ولكن الهواجس تربصت بى: أمى فى المستشفى؟ لماذا؟ هل؟ لا لا.. كانت مريضة ولكنها لن تموت.. إنى أحبها..

أخرجت يدى من البطانية ورحت أدعو الله لأمى، ووعدته أن أكف عن كل ما يغضبه ويغضب أمى وأن أحافظ على الصلاة لكى يحافظ على أمى، وبكيت.. غلبنى البكاء من الخوف والجوع والوحدة والبرد، فصل الشتاء اللعين أكرهه، كنت أتخيله دائما كريها، مظلما، باردا يكتم الأنفاس، يمتلئ بالمصائب والأمراض، والأهم من كل هذا أننا نقضيه بلا لعب، فى الشارع أو فى البيت، نغلق البواب والشبابيك، وفى المدرسةحيث تبرد قدماك، تبردان جدا، وأصابع يديك أيضا، ويسيل المخاط من أنفك فتخجل من المُدَرِّسَة، وتضطر لارتداء معطف ثقيل له بطانة مهترئة اشترته أمك من (البالة) من سوق الجمعة، يخجلك لبسه مثل المخاط! ولكنه الشتاء القذر، الصيف أجمل بكثير، فى الصيف لا مدرسة ولا معطف مهترئ ولا مخاط ولا تبرد أطرافك! أحب الصيف، ولكنه بعيد الآن، وأخواتى أين هن الآن، لماذا تأخرن؟ أنا جائع وبردان، بردان جدا، لففت نفسى فى البطانية جيدا ثم سرحت، كنت نائما فى السرير مصابا بالحمى، وكانت تمطر فى الخارج، وأبى يشكو من الديوان، وأمى تغمس منديلها فى الماء البارد وتضعه على جبينى وتبكى، هل كانت تبكى علىّ أم من حديث أبى؟ لم أفهم شيئا، ولكنى رأيت فى وجهها فاجعة، وسمعت شيئا عن البيت، الرهن، الرحيل من هنا، وبكيت ايضا، تعللت بقطرات الماء التى تسقط من المنديل وبكيت، تخيلت الأمر، نحن بلا بيت، الأب والأم وأخواتى وأنا فى العراء، يغسلنا المطر فى شارع معتم بارد، وبدأت أغفو، ولكنى انتبهت لحضور أخواتى، ضمتنى إحداهن وقبلتنى وهى تسألنى:

ــ متى حضرت؟

لم أرد عليها، بل سألتها:

ــ أين أمى؟ لماذا تأخرتم؟ لماذا ذهبت أمى للمستشفى؟ لن نرحل من هذا البيت.. أليس كذلك؟ أمى لم تموت.. هه؟ ليست من الأمهات

اللاتى يمتن! أنا جائع! خذونى لأمى.. خذونى إليها.. أمـــى.. أريـــد أمى..

قالت أختى الكبرى:

ــ إهدأ سنذهب إلى أمك بعد أن تأكل.

= لا أريد أن آكل الآن.. هيا بنا نذهب لأمى.

كانت فى مستشفى الدكتور شكرى الخاصة، ربما وضـــعوها فيهـــا خوفا على حياتها، المستشفى كان صغيرا ونظيفا يحتـــل أحـــد أدوار العمارة التى يملكها الدكتور شكرى نفسه وزوجته الطبيبة ايضا، لهـــا باب ضخم من الزجاج لا ينفذ منه الهواء والبرد، وترى من خلالـــه المطر، كان ثمة ورود وسجادة طويلة لتنظيف الأحذية، وفى الـــداخل كانت الأرض مفروشة بالسجاد الجميل، وممر نهايته ســـلم صـــعدنا عليه لنرى أمى، وأحسست أن ثيابى تجف وعظامى تطرد البرد مـــن داخلها، ثمة تدفئة مركزية، وهدوء وإضاءة جميلة مريحة، هـــا هـــى أمى بهجة الصيف ودفء الشتاء، كانت تبتســـم، مريضـــة وتبتســـم، قبلتنى ولم تحدثنى، لم تكن تســـتطيع، أردت أن أحـــدثها أنـــا، لكـــن الممرضة جاءت وطلبت منى الخروج، خرجت مرغما، لم أفهم لماذ يجب أن أخرج، خرجت إلى الردهة، كنت أشعر بالدفء ليتنى خلعت المعطف فى غرفة أمى، هذا المعطف يقيدنى ويخجلنى، فـــى نهايـــة الردهة وقفت أمام الباب الزجاجى، يسبح عليه المطر ويسيل، فرحت بالمنظر الجميل، فى أحد الجوانب مقاعد ومكتبة صـــغيرة، بـــالقرب منها يجلس رجل على كرسى هزاز، هل هو الدكتور شـــكرى؟ هـــل أسأله عن أمى؟ كان يرتدى بنطلونا من الصـــوف وقميصـــا أبـــيض بخطوط زرقاء، حليق اللحية، أبيض، ويدين ناعمتين، يدخن بهـــدوء ويراقب سقوط المطر عبر الزجاج، رحت أتطلع إليه وإلى المطـــر، الجو هادئ وساكن ودافئ، ومطر تراه ولا يبللك، انتشـــيت ونســـيت نفسى وسرحت، كان التنفس مريحا، وانفى لا يسيل..

مرت الممرضة مسرعة وألقت عليه السلام، تأكدت أنـــه الـــدكتور شكرى صاحب المستشفى والعمارة كلها، لو كان أبى دكتور، هممت أن أسأله عن أمى، ولكن فجأة تمزق الهدوء، صوت سيارة أمريكيـــة

طويلة وقفت أمام الباب الزجاجى الضخم، بعد قليل دفع الباب طفل فى مثل عمرى، دخل واثقا فرحا، كان وجهه أحمر، يرتدى معطفا جلديا أنيقا بطاقية من الفرو وحذاء برقبة، تابعته وهو يعدو ناحية الدكتور: بابا بابا، نهض الدكتور وأخذه بين يديه، ورفعه عاليا وقبله، ثم دخلا فى أحد الأبواب الجانبية.

فى هذه اللحظة سمعت صوت فاطمة شقيقتى ينادينى:

ـ تعال!

ولم أرد.. كنت مأخوذا!!

جاءت وهزت كتفى وهى تقول:

ـ تعال، الممرضة ذهبت

تطلعت فى عينيها ولم أنبس بكلمة.

ناقص ضلع؟!

نهى شريف غنام. فلسطين

سنتان...

وإذا بها تقرر مقارعة القدر، وتجري بعكس ما تشتهيه العاصفة، والريح مغيبة عن الحضور لأسباب قد تكون ميكانيكية غير مخطط لها من قبل..

تترجل مشاعرها كما الفرسان الذين سبق لهم وترجلوا.. عظماءً في عين التاريخ، تاركة غنيمة المرأة الأصيلة لغيرها التي تتحمل..

"أم ميس وريم ستترك زوجها المحبوس"

"يا لطيف... شو صار للنسوان؟"

*

سنتان

ويتنهد الجرح عميقا..

يبصق محتوى دمائه العفنة على وجهها الصبوح..

يتدارى من لعنة القدر..

ويتفه أسباب الانسياق وراء عاطفة..

إنها التي غرقت وإياه في دهاليز العاطفة..

إنها التي جاب أنحاء البلدة ململما لأفراد جاهتها، كلهم من "لبسة العقال"، ناس كبار ولهم قيمة أرشيفيه.. قال ذلك..

آه... لا زالت نتوءات الجرح مؤلمة وتكثر من وخزها في الليالي الباردة والحارة، أي حرارة تلك التي يشهدها هنا؟!

يبدو ساكتا..

لابد انه تعود على حرارة الزنزانة..

*

سنتان

ليست البداية من الشهر الأول... ولا الثاني، لها تاريخها الذي تعرفه ويعرفه كذلك المعنيون..

ما أجملها فلسطين حين تتلألأ في قطعة سلاح، تتمايل على أنغام الرصاص في قفصها الذي اعتادت على الرقص فيه منذ... منذ استشهد والده في التاريخ الذي يعرف نفسه وتعرفه فلسطين..

صاحبها "الانتيم" الذي عرّفتها عليه الشهادة، راقصته بشهوة جامحة امتصت عشرين عاما من حياته وحياتها و... لن تأخذ من ميس وريم ما أخذته منهما..

ولا "فيتو أمريكي" يمكن أن يمحو حقدها على ما لا تدريه..

جميلة بدت بثوب زفافها الأبيض تتلوى بين ذراعيه فتطير الفرحة بدفع من طاقتها..

لم يسبق للوقت أن اختلس منها هكذا أيام إلا قبل العشرين القادمة بسنتين..

لو كان الحبر سائلا سيسوء الوضع كثيرا، ولو كان الورق أفضل من هذا، لأصبح الوضع جيدا على الأقل من الأقل.

"زوجي الحبيب"

حين تُكتب بخطها تختلف كثيرا!

تعج بالدموع الهائجة الغاضبة الثائرة المحتارة المنادية المستغيثة السائلة المتألمة والناكرة لـ... لـ... ربما لجميل الذكريات العادية..

و... كفى

لم يعد زمن قيس وليلى متاحا على هذه الأرض..

*

سنتان

تكفيان لقلب العالم فكيف بقلب هو مقلوب أصلا؟

"وبعدين"؟

"حبيبي"

عندما تُكتَبُ حاف، وغير مسبوقة بلفظ ما، ومتبوعة بنقطتين، تشعره بالغربة.. ليس خطابها؟!
فعلا...
انقلب قلبها فما عاد يعرف "تلبيق" المصطلحات المناسبة ولا دبلوماسية في التعامل، هي الآن تشعر به ذاك المراهق الذي أحبته على طريق المدرسة ولم تراسله لأنه "عيب"..
تحسه الآن مقاوما بطلا مناضلا مضحيا نبيلا شجاعا متمردا و... ليس زوجا!
"عشرون سنة.. ياه.. كم هي بعيدة لمسته التالية، ياه.. كم يحتاج من مدة زمنية أرضية وشمسية حتى يمارس طقوس "زوجيته"، ما أبشع الوقت حين يبطل مفعول المشاعر فتصبح غير صالحة للاستهلاك البشري..
ميس وريم أيضا تعتبرانه مقاوما بطلا مناضلا مضحيا نبيلا شجاعا متمردا..." بابا" و.. ليس والدا.
تقسم أنها أحبت تلك المتلألأة على قطعة سلاح، وأحبت التاريخ الذي يعرف نفسه وتعرفه فلسطين..
وإلى الأبد.. ستحبه هو وإن كان "عيب"؟!
ولكنها لن تتحمل أعباء الأصالة فينكسر ظهرها "من اليوم"، وبعد عشرين عاما لن يقبل بهذه الجديدة مكسورة الظهر!
هكذا يفكر الرجال هنا، في البقعة الواسعة جدا، حول المحكمة التي أصدرت قرار الانفصال و.. لينتظر القدر ما سيأتي ، متشبثا بأصالته..

أسفار بني مهباش

علاء غنيم. مصر

أنهى برسومة البصاص قفزاته المتتالية بين دروب التيه الواسعة بانقضاضة خاطفة على الذيل الطويل للجمل الذى بدأ تسلقه فى مكابدة واضحة حتى وصل إلى الهودج أعلاه، اخترق برأسه الستر وأخبر كبير بنى مهباش بشئ جعل كبيرنا يمد رجله للخارج آمرا الموكب أن يتوقف.

قرعات طبول الحرب تكف، وحركة الموكب تتآكل تدريجيا حتى تصمت تماما، موكب بنى مهباش ليس كأى موكب فى الكون، له شكل حلزونى عجيب "**كلما زادت حلزونية الركب خشيتكم الأعداء ورهبتكم الأنداد / السفر الخامس من كتاب شرائع بنى مهباش / باب الحرب**".

يطل علينا المهبوش الكبير بطلعته البهية الناضرة ونوره الأخضر المجلو، الوجه ـ ما شاء الله ـ رغيف محروق، والرأس مربع محلوق، والطول طول فأر مزنوق، والعرض عرض خيط محروق، والثوب خشن مرتوق "**يا معشر المهابيش، اعلموا أن اليوم أعسر أيامكم، وحى الملاح آخر آمالكم، وأن الجنة لايرحل عنها من قطنها ولايهرم من سكنها ولا ينقطع نسل لمن دخلها، فهذه جنتكم التى كنتم توعدون فابتاعوها بهجوم سريع وامتطاء مريع ولا تستمعوا لصوت المحبطين** واعلموا أن الغمة التى أعشتكم وأبكمتكم لن تقشع

إلا بجهدكم وانبساط خراطيمكم".

أثارت كلمات المهبوش الكبير حميتنا جميعـــا، فرعــدت العجــائز وقهقه الشيوخ وزغردنا نحن معشر الشباب.

بدأ الموكب يتحرك من جديد، وأخذ كل منا يمنى نفســه بالأوجــه الصِّباح التى سيطالعها فى كل صباح، نريد وجوها لا تشــبه وجــوه أمهاتنا، صببنا اللعنات على المهبوش الكبير السابق، كان هو سبب ما أصابنا من بلاء عظيم، خالف شرائع بنى مهباش وتزوج ابنة عمـــه **يحل للمهبوش الكبير الاقتران بمن شاء من نساء الأنام ما عدا بنات الأعمام / السفر الثانى من شرائع بنـــى مهبــاش / بــاب حقــوق المهبوش الكبير".**

نعم كانت ابنة عمه هى زينة بنى مهباش ونوارتهم، وجهها الأسوْد الصدئ يخطف الألباب، وشعرها الأصفر المجعد يأســر الأنجــاب، وجسمها البدين القصير يسيل له اللعاب، ولكن الشــرائع إذا انتهكــت حلّت اللعنات.

"لن تتكرر فعلتك بعد اليوم، النساء لا يلدن سوى البنين"

لم يعبأ آباؤنا فى البداية بهذا الصوت الذى تردد صداه فى مضارب بنى مهباش كلها، فخمسة شهور لا تنجب النساء خلالها إلا البنين أمرٌ قد يكون من قبيل المصادفة، ولكن القلق غزا القلوب مــع اســتطالة المدة، سنة، سنتان، ثلاث، خمس سنوات وهن لا يلفظن غير الذكور، اعتادوا مع كل انتفاخة بطن الجزم بأنها البنت التى ســتمد النســل وتقدح الأمل، وفى يوم الميلاد يعلقون الزينات على الدور العاريــة، يعدون الولائم، يذبحون الحمير والكلاب والفئران، يغطــون الارض بروث الإبل وينتظرون خروج الداية.

"ولد..."

تنكسر العيون وتطفأ جذوة الأحلام، وأد الــبعض أولادهــم خوفــا عليهم من المصير المحتوم.

لم يستطه المهبوش الكبير السابق تحمل وخزات أعين المحرومين، لذعته الأعين بسياطها "**إذا لم يتحمل المهبوش الكبير وخزات الأعين ولذعات الألسن فعليه أن يقبض روحه بنفسه / السفر الأخير من شرائع بنى مهباش / باب الخلاص**" كان علينا أن نختار كبيرا جديدا، كتاب الشرائع لايفوته شئ "**فى الثانية التالية لانقباض روح المهبوش المتوفى يتم اختيار أول رجل يسقط على كتفه زبل الحمامة الزرقاء مهبوشا كبيرا جديدا / السفر السابع من شرائع بنى مهباش / باب الحكم**".

كان لابد أن نجد حلا عمليا لمأساتنا، اجتمع رؤساء بطون بنى مهباش وتدارسوا الموقف "**يوكل الأمر برمته إلى المهبوش الكبير الذى لايوجد له ضريب ولانظير، وتترك له الفرصة التى يحددها لإيجاد الحل القرير / الرقعة الوحيدة التى تحمل توصيات لجنة الحكماء**" جمع المهبوش الكبير الحالى كل كتب تراث بنى مهباش من المرحاض العمومى الواسع وطلب إلينا ألا يدخل عليه أحد قبل مرور خمسة أعوام.

مثل اليوم منذ خمس سنوات كان الموعد، خرج علينا وقد تجمع ملايين المهابيش فى الميدان الفسيح "**الحل فى هؤلاء...**" اتجهت أناسيُّ العيون إلى حيث أشار، بقرة وأتان وناقة ولبؤة وظبية "**فليعرس كلٌ منكم بواحدة منها فتنفك اللعنة وتنهمر البنات وتحل مشكلة البنين**" ولأن كبيرنا من ذوى الفضل والعفة وعلو الهمة فقد ارتأى أن يبدأ بنفسه، فاختار ظبية جميلة مرقشة، يوم واحد وتكورت بطون إناث الحيوانات كلها، رفعت الزينات وبسطت الولائم وذبحت الحمير والكلاب والفئران ــ الذكور فقط ــ وكسيت الأرض بالسباخ وانتظرنا بالخارج.

"**ولد...**" كررتها الداية عند خروجها من زريبة.

"**لاتدخلوا على قبل خمسة أعوام**" قالها المهبوش الكبير وهو يدخل داره محتضنا كتاب تاريخ بنى مهباش منذ الأزل.

أمس كان موعدنا معه "**الحل يكمن هنا...**" حدجت الأحداق العطِشَةُ فى الدائرة الحمراء التى أحاطت بموضع صغير على الخارطة الجلدية التى رفعها فى وجوهنا "**حى الملاح**" أخبرنا أن بحثه أفضى إلى أن انكسار اللعنة يتم عند اقتران شباب بنى مهباش ببنات حى الملاح "**وحى الملاح يزخر بالعرائس البكارة الحلوات اللاتى لم يمسسهن من قبل رجالات ولا حيوانات، وينعدم فيه الذكور إلا من شخص طهور، ولد منذ خمسة قرون، ولا يخرج من بيته الصفيح إلا كل تسعة شهور ليفض ويبنى / السفر العاشر من كتاب تاريخ بنى مهباش / باب الإنباء عما أحاط ببنى مهباش من الأحياء**".

الآن يخترق الموكب مدخل حى الملاح، لا متاريس ولا خنادق ولا سياج، الهدوء الهطِلُ يغلف المكان ورائحة حلوة تقبض على أنوفنا فننتشى، سنشق ريقنا فى كل صباح بأنثى ونحبس بعد الغداء بأخرى وننام مقرورى قريرى العين بعد امتطاء الثالثة عقب العشاء، نقترب من أحد الآبار فنهبط من فوق أحداجنا لنرتوى، ماؤه عسل، نقطف الثمار البيضاء من على الأشجار، طعمها سكر، نحازى بيتا من صفيح **هذا بيت رجلهم الوحيد**" يصرخ برسومة البصاص "**فلندخل ونقضى عليه**" صاح فينا كبيرنا، نشهر أحسمتنا الخشبية ونمزق الفراغ مكان الباب المخلوع.

نار مستعرة وقوالب مصبوبة، وسائل لزج يغلى، وهيكل عظمى لرجل صغير.

ندور غى الطرقات، نحطم الأبواب والجدران، نكبس الدور.

كان المشهد واحد فى كل البيوت.

عروس حلاوة تنام على السرير وبجوارها منديلها الأبيض النظيف.

"**خلقت الطرق للرحلات لا للنهايات / السطر الأول من السفر الأول لشرائع بنى مهباش**".

لماذا؟

أسد محمد *.سورية

"أذهب إلى الحديقة، أستجم قليلا، حتى لو لم أقابل زميلي كما اتفقنا ليلة أمس لازم أروح.." غيّر من مكانه الجالس فيه إلى الصوفة، شعر بحكاك لامس أعماقه، تمنى ألا تكون زوجته قد ذهبت لزيارة أهلها، تمشى قليلا في الكريدور المنفرج الزاوية، التحف ضجره حتى سوية الوحدة، وضع حد يده المبللة بعرق على هلال جبينه الذي تمدد كخليج في يابسة شعره، وهمس: "نصف ساعة، لا أكثر ولا أقل، ومن بعدها أعرج إلى الدكان المحاذي للحديقة أشتري قداحة وملحا.." لبس كنزة الصوف، ووضع قبعة ابنه على رأسه، ولفّ عنقه بشال اتقاء لبرد محتمل، ومن شر إصابة نزلة صدر محتملة، كانت قد زارته فجأة قبل أيام وسقطت في بؤرة مناعته بنفس الطريقة التي جاءت، رشّ ماءً باردا على وجهه قبل أن يخرج، وعلى هدى خطوات مبرمجة، أقفل الباب، وهبط الدرج من الطابق الثالث ..

صعد الدرج، أصوات رجع صدى خطواته الاعتيادية، صادف جارته نازلة فطرح عليها السلام، فتح الباب، دلف إلى بهو الصالة، أرجع كل ما لبسه إلى مكانه: القميص، البنطال، الشال، أما القبعة، فخانته قوته ولم يتمكن من وضعها في مكانها، وتسقط كلما حاول

تعليقها، فتركها أخيرا حيث وقعت على الكرسي الهزاز تنظـــر إليـــه بعينها الواسعة المحاطة بشريط بني له نهاية مشروخة.. أدخل جسمه في البيجاما المقلمة، وترك قميصها الصوفي غير مزرر من ناحيـــة شقه العلوي، كاد يجلس فوق القبعة، لكـــن حبـــات ضـــوء شـــمس الغروب، التي لونتها بأشكال الثقوب التي مررتها، ذكرتـــه بموعـــد تناول الشاي، فدخل المطبخ، ملأ الإبريق بالماء، وضع فيه ملعقتـــي سكر، كبس مفتاح الغاز وفتحه، ومد يده إلى مكان القداحة، ســـحبها، قدح مرة بعد مرة، لم تشتعل، تأمل حجرها المنزوع، وقال: "أف.. لم أذهب للدكان، ولم أشتر قداحة ولا ملحا، ولم أذهب للحديقة.." أقفـــل الغاز، حددت بقعة شحَّار عند حافة الإبريق السفلية أقسى ما لديه من تركيز في النظر، وسالت كلمات من فمه كلعاب دبق: لـــم أفعـــل أي شيء كما خططت، رغم أن زميلي الذي صادفته عند منعطف البيـــت من الخلف، لم يطلب مني أن أرافقه إلى المكتـــب العقـــاري، لكننـــي رافقته، ولأول مرة أفعلها وأشرب الشاي في مكتبـــه دون ضـــيافة، حضرت مبايعة، ووقعت كشاهد، وشاركت في الترويج للصفقة دون طلب من أحد، وانتقدني لأنني أرتدي قبعة أصغر قياسا من رأســـي، وفي لحظة من حوار حول السوق والبيع والشراء، نسيت أن أزيحها رغم تصميمي على فعل ذلك..

ترك الإبريق في مكانه، قاطعته ألف فكرة وفكـــرة، حـــدج فـــي صورة أمه ضمن برواز خشبي قديم، مسح عنه غبارا عالقا، استلقى على الأريكة، لف ذراعيه كوسادة وأسند رأسه عليهما، وخرج منـــه شخصا يناظره الشبه، وقف قبالته، وأول سؤال طرحه:

ـــ لماذا ذهبت إلى المكتب العقاري مع زميلي، ولم أذهـــب إلـــى الحديقة كما خططت؟

ـــ القداحة ؟ ....

ـــ الملح ؟ ....

ـــ أنا ؟......................

ـــ .... لماذا؟

ـــ ....

---

* الراحل النبيل الدكتور أسد محمد طبيبٌ أديبٌ ســـوريٌ، خســـره الأدب.. خسره الطب.. خسره فقراء المرضى.. خسره محبو الحرف الجميل، وكسب هـــو لقاءَ رَبِّه راضيا مرضيا مطمئنا بإذن الله.

أكياس الخريف

علي الفقي . مصر

ـــ إيه رأيك فى شعرى كدة، والا زمان أفضل، والا مفيش فرق؟

قالتها وألقت بكيس الحنة من الشرفة، تلتقطه البنت التى كانت تغنى "أنا شعرى حرير فى الهوا بيطير"، أعطته لشقيقها الشقى وجرت خائفة منه.

أخذت المرأة توجه شعرها لشمس الخريف، تتخلله بأصابعها فيضوى لمعانه البنى الضارب فى الاحمرار، كان مسترخيا على فوتيه يراقب الصبية وهم يصنعون الطائرات الورقية ويلوحون له وهو يبتسم مسندا رأسه إلى كفيه.

تحسست رأسه، وأدخلت أناملها بين جذور شعره، تفرق خصلاته كأنها تقوم بالرقى على مريض، انتفضت رأسه عندما نتفت إحدى الشعيرات البيضاء، قال:

ـــ أهكذا يكون الصباح؟

وضعت يديها فى جيبى الروب الكستور وهزت رأسها فاهتز شعرها، وقالت:

ـــ تفتكر نوع الحنة دة كويس؟ أو الأحسن أصبغ شعرى؟

ثم ضحكت، نهض واقفا مغادرا مجلسه، فوقع على الأرض كتاب زهرة العمر لتوفيق الحكيم، لم يشعر أنه حافٍ إلا عندما اكتشف أن الأرض عارية من السجاجيد والمشايات، تخطى الشرفة إلى غرفة النوم، السرير خالٍ من ملاءاته والستائر ليست على حالها فوق

الحوائط، تلك الحوائط التى كشفت عن حرابها وقدمها، كالمرأة التـــى يملأ جسدها الندوب والأمراض الجلدية.

نظر إليها فوجدها هائمة على البرواز القديم المائل فوق التسريحة، كانا يافعين يمتلئان بالصحة والنضارة والجمال، هى جالسة تحتضـــن الورود وهو يقف وراءها تملأ وجهه الابتسامة الساحرة التى أوقعتها فيه، وشاربه الذى كانت تقبله منه دائما وتقول له: "كلارك جيبيــل"، ظل يبحث عن الشبشب حتى وجده فى الحمام، دس قدميه فيه وقال:

ــ انت لسة قالبة الشقة من كام يوم!

دون أن تلتفت إليه، انشغلت بالمرآة العتيقة التى ذهب عنها طلاؤها الذهبى، قالت:

ــ الغسالة عطلانة

قطع الممر الفاصل بين الحمام والصالة، وجدها مـــا زالـــت أمـــام المرآة، فأشار إلى اللوحة المقابلة وقال:

ــ بصى لدى أحسن.

كل الأولاد الأربعة وزوجاتهم وأولادهم تجمعهم صـــورة واحـــدة، وهو فى الجانب الأيمن بجوار الأكبر وهى فى الجانب اليسر بجـــوار زوجة الابن الأصغر، الوجوه كلها سعيدة باستثنائه..

زفر وهرش لحيته ودخل الشرفة، تناول زهرة العمر من الأرض، نفضه ووضعه فوق الفوتيه.

قالت: مش نازل؟

قال : لا.. الجو لا يسمح.

قالت: الغسالة عطلانة.

كان الشارع خاليا من المارة، تزَّوْبع به دوائر من تراب الخريــف وتصطدم بواجهات البيوت، لم يجد الصبية يلعبون، وعلـــى القـــرب كانت أشجار البونسيانا عارية من الأوراق، تمد فروعها السمراء فى استغاثة غير رحيمة.

ــ انت حر.

وناولته النظارة، وضعها فى جيب الروب واحتضن توفيق الحكيم.

أحست فى اليوم التالى أنه لم يغادر الشرفة منذ الأمـس، وجههـا مسلط على الشارع، ظهره لمدخل الشرفة، قالت:

ــ الجو كويس النهاردة

أشعل سيجارة، وضعيده على جبينه يفكر أن يستدير إليها ويفاجئها أنه أدرك بعد كل هذا العمر أنه لم يفعـل شـيئا، وأن عمـره غـدا سورياليا عبثيا أفناه فى وظيفة لم تعطه ثمنا لإخلاصه سوى بضـعة جنيهات يقمن صلب معاشه، وتربية أولاد ضنوا عليه بالرسائل، مـر العمر فجأة كما سيحضره الموت فجأة، كلاهما لم يشعر بهمـا ولـم يشعرا به.

ــ شفت الروب الجميل دة؟

قرر أن يستدير ويفاجئها، اندهشت، صرخت، كتمت ضحكة، أحس أن الشارع ينظر إليهما، وأن الزوابع قد استكانت للصرخة..

ــ إيه الجمال دة!

ابتسم لنصف صدرها العارى وقال:

ــ روب جميل.. مشدود وحلو

= انت الأجمل بعد حلاقة ذقنك

دققت النظر إليه ومدت يدها، رفعت ذقنه

ــ كرمشة رقبتك زى ماهى، اللحية كانت مدارية عليها.

أغلق فمه وأزاح يدها..

ــ العمر بيجرى

ضحكت وقالت: ــ فاكر الروب دة؟

نظر إلى الشارع الذى هدأ وبدأ الصبية يلعبون بالطائرات الورقية، والولد الشقى يضرب شقيقته:

ــ إمش يا بنت ما تلعبيش مع الصبيان.

نظر إليها بتمعن ولم يعلق على التـرهلات التـى بـين النهـدين والكرمشات التى أحاطت بعينيها.

قال: ــ انت قصرتِ شوية عن الأول؟

قالت: ــ معقول! أنا قصرت!

قال فى شئ من الحكمة وهو يضع ساقا فوق ساق:

ـ شئ طبيعى كلما تقدم العمر.
رمت نفسها فى حضنه وعبثت بشعره، غنزعج عندما نتفت شعرة بيضاء.

*

استطال البنيان الجديد امامهم وبدأت الأعمدة الخرسانية تأخذ موقعها فى الخرابة المجاورة، وعيال الحى يلعبون بالزلط والرمال التى تحملها الرياح فتصطدم بالشرفة، أغلق الشرفة ودخل الصالة، سمع زعيق صاحب المنزل يترامى على جنبات السلم، إنه الوحيد الباقى فى المنزل منذ أربعين سنة، كم يود المالك خروجهما أو موتهما حتى ينقض على المنزل ويقيمه بناية حديثة.
زفر وتفل فى الحوض: ـ لن أخرج.
قالت: ـ إلبس ونخرج نغير جو..
نظر من خصاص النافذة فوجد الهواء يحمل طائرات الأولاد الورقية، ابتسم ورمى عينيه على شعرها عندما لاحظ أن الأولاد زينوا طائراتهم بأكياس الحنة.
ـ الدنيا اتغير وما لناش مكان.
دعكت بأناملها التى تلونت بلون الحنة شعرها الخفيف، ابتسمت وقالت:
ـ أنت اللى كبرت وما تقدرشى على المشى
ألقى جسده النحيف على كنبة الأنتريه وتناول من فوق الكمودينو دواء السكر والضغط بينما كانت هى فى الحمام، سمع صوت "الكومبنيشن" المزعج ثم عادت وسألته سؤالها الأثير:
ـ تتغدى إيه النهاردة؟
قال فى ضجر:
ـ أى حاجة
ضحكت وقالت:
ـ خلصت من السوق الأى حاجة اللى كل ما اسألك تقولهالى
ابتسم وقال:
ـ اعملى فتة.

ثم انشغل عنها بفتح الراديو العتيق فانســاب صــوت الموســيقى بمقطوعة رائعة لموتسارت، سحبت روحه ونفسه إلى صدر شــبابه، عندما مرضت أمه وعكف على خدمتها ورعايتها وحملها على كتفيه ليدور بها على الأطباء والمستشفيات العامة، وكانت تقول له:

ــ يابنى ماتتعبش نفسك، أنا ميتة ميتة.

فيسمع صوت زوجته "إمتى بس؟!"

واقتطف ثمرة من شجرة ذكرياته عندما أنفق ميراثه عــن والدتــه على أربعة رجال تزوجوا أربع نساء ورحلوا إلى أربع بلاد، لم يجــد منهم سوى بعض الصور وبقايا من خطابات فارغة.

*

استيقظت على أصوات عالية كأنها المظاهرات، فتحت الشــرفة، وجدته ممددا على الفوتيه يلف رقبته بكوفية من الصوف، ورأت أمام البنايات الحديثة عشرات الشباب يحملون أكياسا ســوداء، استفســرت منه عما يحدث قال:

ــ البطالة يا ستى، كل واحد بيعرض يشتغل بيومية أقل من التانى، والمقاول فرحان بلمة الشباب، أنا أعرف نصهم، جامعيين..

قالت:

ــ أنا سقعانة، والغسالة لسة عطلانة..

فك الكوفية وأعطاها لكتفيها وقال:

ــ أصبح عندنا اتنين بعربات فول، نزلى الســبت وهــاتى فــول للفطار.

ضحكت وقالت:

ــ بقى لنا كتير ماكلناش فول..

أمسك يدها فى حنان وضغط برفق على العروق البارزة، تألمــت بغنج وقالت:

ــ حاسب، انت نسيت الرومنسية

حدجته طويلا، ضحكت بدهشة:

ــ ياخبر! انت حلقت شنبك؟

قال وهو يمط شفتيه:

ــ تغيير، كدة أحسن

=كلارك جيبيل اتغير

ثم قالت بشئ من السخرية:

ــ دة انت بقيت حسين فهمى

جذبها إليه برفق، لرتمت فى صدره، لفها بذراعيه وقال:

ــ مش هتشترى الفول؟

نهضت من حجره وقالت بدلال عجوز:

ــ لا، أنا هافطرك بقية الفتة.

ابتسم ووضع الساق فوق الأخرى ونظر إلى الشارع وقال:

ــ تغيير

سبقتها رائحة اللحم حتى الشرفة، وضعت الصينية فوق الطاولة القديمة أمامه، أخرجت من جيب الروب علبة ذهبية، فتحتها، ناولته ما بداخلها..

ــ اتفضل علشان تعرف تاكل اللحم

تناول طقم الأسنان وابتسم.

كرم الأعرجي .العراق

أحس انني مغلق المشاعر، مفتون بهوس الوحدة، أفتح فنجان قهوتي وأسكن الخيال مشحونا بالفوضى، ترتعد من حولي المفاجاة، تشبهني سفينة تائهة تحاصرها الرياح والامواج، لا نافذة من البحر تطل على هذا المدار الخامل المكتظ بخلل مزمن يرافق ارتعاشاتي من مبهم، ثمة أمر يسجل بصماته على هيكلي الخاسر، كل شئ يصرخ في وجهي من داخل هذا القبو المريض بالعفونة والسعال وأوجاع المفاصل كل شئ حتى الذاكرة التي تفتح بعضا من شبابيكها كي تسليني، غمست روحها العتم، إنه الوهج السري الذي يقتنص لحظة دهشتي من غفلة علقت أسرارها على حبل لا يتصل، دوران يهيمن على غيبتي الراعشة، تلك (الاحافير) المكتوبة على جدران الفنجان القاحل تتنبأ بخرافات ستأتي من سبايا الألم القادم، واحفادي السالكون دروبا بعثرتها فجائعي الحاذقة بنهايات المعرفة، وخدر الانكماش المتأصل بجذري الحزين، سكون، وفوضى تتلاطم بهذا العماء الساخر من وجهي، طرق تتلوى وأخرى معبدة بأحلامنا المرعبة، لاشئ يندس الآن في الظلمة لأنني أرقب فقط مايحلق من أبخرة تؤجل الشروخ لتتسع الدهاليز عبر بؤبؤي البعيد والخاسر مع (زرقاء اليمامة) تلك الفوازير غابات من الشرود، اسمع (نايا) يخرج عزفه من داخلي كي ترقص الأفاعي أمام هذا التحديق المزمن بالصراخ الذي يتحلى بالصمت خوفا من أن يسرق السمع جيراننا وأتهم بالجنون، لانهم علقوا يوما على حائط منزلنا صورة فيضان

١٩٧٢ ثقاب الحريق. وقد عجبوا من نجاة عائلتنا من الغــرق، هــذا لأننا كنا بلا سقف وننام بهدوء القطيع في زريبة حيث التنفس الخانق والمعجون بالصرع الذي أصاب أمواتنا قبل أن ندك علــيهم حفــرة الحق..

كنا مستائين من الأمجاد وبطــولات الخرافــة، تــاريخ ســقيم بالقفزات المعطرة بكذب المؤرخ الحذر من حاكميه، قهقهتي المريضة بحشرجة الحنجرة اخترقت الجدران الأسمنتيه التي تفصــلها لولاهــا لكانت جلستي مع فنجاني متداولة فجأة سمعت طرقات مفزعة علــى الحيطان الثلاث، علم الاجتماع يثوِّره (ابن خلدون) في تلك اللحظــة هؤلاء من كل تاريخ لهم مرجع، طرائق شتى ومن مدن شتى، لمــاذا أنا محاط بكل هؤلاء النســوة اللــواتي هجــرتهن المفــاتن الأنيقــة وتقمصهن الموت بأخذ أزواجهن، كل الطرقات كانت تؤدي بي إلــى لغة غائبة، تارة أفهم معناها وأخرى أجهل ماتكنه تضاريس الصوت، أتلفت بقفزات متواترة في التحديق، تحجر بؤبؤي في صدارة المعنى الذي ينطلق من فنجاني المريض بشعرية غامضة تماماً صار كل شئ ماضيا مشوشاً، فجأة انسكب الهدوء، وجه يتربصــني منــذ نشــأتي وفاضت في فضائي ملامحها كانت، حبيبتي.. ثلاثون عاما لــم يبــق منها سواي كانت في خساراتي، حدثتني ببراءة المواكب الربيعية التي مرت في احتفال درامي عبر تلك السنين، لم أكــن اصــدق، أتلفــت مشدوها وخائفا لكنها أصرت على أن تحدثني عن تجارة العواطــف وسهام المرضى من عوائلنا أبطال التفريق.. أحسست بصدمة لا تليق بتلك اللحظة المنشغلة بأحداث (الجحيم) لهنري بارابوس الــذي شــق قلبي نصفين وأخذ بعقلي نحو مايدور خارج عزلتي تناثر الإصــغاء في حفريات وأخاديد أضيع فيها كلما اقتربت نقرتا العينين وتحركــت شفتان صقيلتان بلون العاج فاغرة من هيكل، تعال وضمني كي تسمع طقطقة القلب الذي تحجر منذ زمن تعال زرني ليلة واحدة كي تكون قمري لاخلص استلقائي هذا وأتحول الى رميم، لأفزّ بضــوئك نحــو ماجئت منه منفصلة الى الابد.

هذا الدخان يغرقني ثم يخرج بطيئًا بلون البنفسج من ثُقب قصــدته

في المرآة، المقابلة لمكتبتي الخالية الامني، هذا لانني كنـت اسـتعير الكتب واعيدها واستر فراغها بالجرائد العتيقة لابصر معنـاي فـي الفراغ، غارت في الجدار رحلت بلا نضارة انيقة، كما كنت اشاهدها صباحاً، عندما تذهب الى مدرستها وهي ممتلئة بمـرح الطرقـات، وجذوة الفساتين والحدائق، كانت جذابة وصافية الملامـح، تكتنزهـا رهافة الروح، صدمتها قسوة الرفض كما صدقني، لنبتعد ثلاثين عاما تدثرنا الذكرى بحروف كتبناها برسائل تزق في الشباب مراهقتهـا، وبعدها اخبرتني جارتها بان السيدة ماتت وهي تقود اطفالها الـثلاث خوفاً عليهم من المواجهات وهكذا سرق الموت اول ذكرى حفرتهـا على القلب.. والان لا اثر لها وكل ماورثته من هذا العالم وحـدتي.. قهقهات غبية صدرت من القعر المخنوق بتـراب القهـوة تحققنـي بسعالها كمنبه فيه عطب، وبتمرين قلق لقواي الراعشة كنت اغوص بحدة نظري عمق ما اكتشفه من أعماق، لم يكن هنالك تأثيث للخطاب في الداخل لان(الطاقة) افتعلت قدرتها..

فجأة سمعت انفجاراً رهيباً رافقته أصـوات الهمـرات وطـواقم التفتيش، انكسر الفنجان وانتبهت من (الخلط) فلم أجد احداً حولي، الا صورة الإعلان اللاصق مكتوبا عليـه أنـت فـي (العـالم ٢٠٠٦) فضحكت لأنني بدأت أفهم الحرية..!؟

لأربعين أخرى

باسم شاهين ـ مصر

وبين خصلات شعره الرمادية ــ قليل منها ما بقى ــ تمر بكفيهـا المحناتين لتغسل عنه وصمة ما فوق جبينه. وبإسفنجة سبق وعطرتها بزنبقاته المفضلة، تغسل له جسده الذى تعرف ثنياته.. كلـون جـدار البيت الذى احتواهما دون الآخرين لأربعين عاما.

تتأكد من حدة الموسى ــ بين يديها ــ على إصبعها، ثم تزيل بـه بعض شعيرات الذقن النابتة هنا وهناك، تمسح بعض الصابون الزائد أسفل ذقنه، ثم تطيب وجهه بعطره الذى يسرى بين شرايينها، نفـس العطر الذى استنشقته خلال لقاءاتهما عبر سنين العمر التـى طالـت بينهما.. كلحظة عشق واحدة لا تهدأ.

تمسح بيديها العاريتين ــ إلا من عطره ــ علـى جسـده، علـى ذراعيه وفخذيه، طابعة قبلة تطول على صدره. لا تفهم بعـد كيـف حرام عليها جسد نامت فى ظله منذ وعت لفؤادها. لا تفهم بعد كيـف هذا الهدوء وهو بين ذراعيها.. كيف يكون الجسد النـابض بالعشـق الطويل باردا؟!

ما هذى الوحشة؟

تدثر جسده برداء أبيض ناظرة بعيون زائغة، سـرعان مـا تبلـل عبراتها الرداء والجسد الساكن تحته، فتعود وتكشف وجهه ماسـحة دموع العين تاركة القلب ليبكى ولودون دموع.

تترك الجسد وحيدا وترحل عنه، ولنفسها تتحمم، تغســل خطــوط بكائها بماء الورد، لا تملك أن تخفى أثر العمر على وجهها، ولا كان هو يحب أن تداريها، فقط تخفى الهالات السوداء حول عينيها بمكحلة داكنة سرعان ما تصب من عيونها أنهارا مظلمة كغدها الــذى تكــاد تراه.

تغسلهما بماء الورد.. وتتكحل من جديد..

لا تضع على جسدها سوى القميص الحريرى الذى ترتجــف يــداه وهو يتحسسه فى كل مرة. تقف حيرى أمام المرآة، تضــفر شــعرها ضفيرتين على جانبى الرأس، تتأمل ثم تطلق سراح شعرها الذى كان بروح الغجر فى يوم غاب منذ زمن، شئ لم تفعله منذ أمد طويل.

تخرج إليه، تدور حوله مرات ومرات، تتمسح حينا وتتلمس عبيره الغائب حينا، ثم تحمله بين ذراعيها جسدا تضاءل، جسد الرجل الذى كان يوما يحتويها ويحملها كطفل صغير.

ينكشف لها من تحت الساتر ذراع.. تخفيها عــن عينيهــا دمــوع تتشرب كحل العينين وعطر الوجه وتسقط فوقه.

تصل لوسط الدار.. حيث حضرت مثوى رجلها، حفرة فى الأرض أزاحت عنها أكواما من تراب لا تملأ الفراغ الذى خلفه رحيله. تركع على ركبتيها لتنزل الجسد الذى بين يديها، تزيح القماش الجاثم فــوق الوجه من جديد..

تدور فى المنزل تطفئ الأنوار.. وتعود إليه..

تنزل لترقد بجانبه.. تكشف جزءا من الرداء.. وبين ذراعيه تستلقى وتستكين.

علي ناصر-سورية

كانَ منْظرُهُ يثيرُ الرُّعبَ في الأوصالِ، يتمايلُ كطائرٍ مذبوحٍ، وهو يتَّجهُ نحوَ البيتِ، بخطىً مُتأرجحةٍ، كغصنٍ مكسورٍ تتلاعبُ بهِ الرياحُ.

عندما وصلْتُ إليهِ لاحظْتُ الدَّمَ يسيلُ على صدرِهِ، وهوَ شِبْهَ مُغمَضِ العينَين، تقودُهُ حاسَّةُ الحنينِ وحيدةً إلى المنزلِ.

بادرتُهُ والقلقُ و الخوفُ يُرهِبانِي:

- ما الأمرُ؟!

رفعَ حاجِبَيْهِ الكثَّينِ مُتعجِّباً هوَ الآخرُ، لِتَنْجرفَ قطراتُ دمٍ حمراءُ قانيةٌ بهدوءٍ على جانِبَي وجههِ الأسمرِ المتغضِّنِ بشقاءِ العمرِ.

حاولَ الكلامَ إلا أنَّ موجةَ ضعفٍ عصفتْ برُكبتيهِ، فارتمى عليَّ، حبيبٌ عبقَ القهرُ بين أسمالهِ الفواحةِ بعرقِ الأخوَّةِ الحميمِ.

رفعتُهُ على مِنكَبَيَّ بصعوبةٍ. ازدادَ وزنُهُ كثيراً، فامتدَّ بيَ العمرُ مُتقهقِراً إلى صبا كنَّا نتعاركُ فيهِ أمامَ الوالدِ المفتونِ بنا، برجلينِ سيحملانِ في غدٍ اسمَه، بعدَ عشرةِ بناتٍ، ماتَ نصفُهُنَّ بالتيفوئيدِ أوالريحِ الصفراءِ أو الجوعِ.

قبضْتُ بقوَّةٍ على زنْدَيهِ، مباشِراً إبطيَهِ، فتدلَّى ذراعاهُ مُتأرجِحَينِ بشكلٍ أرعبَنِي ، وكادَ يُنهكنِي ، لولا خَوفِ المجهولِ اللاحقِ به عبْرَ البساتين.

لمْ يكُن البيتُ بعيداً جداً عن وسَطِ البُستانِ، الإرثُ الوحيدُ الذي يسدُّ رمقَ عائِلَتَينا.

ألجَمَ منظرُنَا، لحُسْنِ الحظِّ، ألسِنة النُّسْوَةِ في البيتِ، فقعَدْنَ يُهَمْهِمْنَ بصلاةٍ ورجاءٍ.

وحدُهُ الماءُ الباردُ على وجههِ المُدَمَّى جاءَ ببارقةِ أملِ استرجاع وعيهِ.

أشارَ إلى رأسِهِ ، فتكوَّمَتْ عُيونُ الجميع على جُرحٍ مُتَّطاولٍ حَزَّ ساقِيةٍ عميقةً، ملأها الصديدُ الأحمرُ فانتشرَ في شعرِهِ الكثيفِ.

" قناصٌ فاشلٌ، لكِنَّهُ رَسَمَ بدمِي طريقِي!"

هَمَسَ بتَهكُّمٍ اعتادَ بِهِ السُّخريةَ من آلامِنا اليوميةِ، ثم عادَ إلى سُباتِهِ، تاركاً إيَّانا نُحيطُ بأولى خيوطِ الجريمةِ بانتظار القاضي القادم قريباً، وقد تنكَّبَ شِعارات جوفاء، ليخلص محيط الفلوجة من أسرة آوت في بيته ابنَها الناجي من رصاصة أخطأت الدماغ واكتفت بخط حراثة واحد في جلد الرأس، رصاصة جاءت لتذكر الأسرة الفقيرة أن موعد فلاحة الأرض قد شارف على الأفول، ولكن المستعمر الجديد قد يقنص ثورَي الحراثة أيضا!

سيقولون:

"قتلنا إرهابياً في وكره، يتبع مجموعة تخطط بأمر (القاعدة) لتفجير خطير.."

أو يقولون:

"اكتشفنا مخبأ أسلحة دمار شامل.."

هتفت أمي الأرملة:

ويحي، سيلحقون به حتماً، أنزله القبو، هناك بين أكياس المؤونة، ضعه كيس مؤونة آخر، و..

صمتت والحسرة تعصرها وتعصرني، وما ذنبي إن كانت البنات خلفتي والبنين من أخي!!

أخذتُ قلبي، وضعته في كأس ماء بارد، ثم تنكبت أخي، خرجت به إلى فسحة الدار، لكن اللغط الأمريكي، سبقني وأمطرنا بوابل

رصاص جمعه شقيقي في ظهره وخاصرته التي حمت رأسي، ودكتني على الأرض تحته بلا حراك.

لم يكن جرحي بالغ الخطورة رغم أنه كان خط حراثة مشرشراً، كفلاحتي التي لم أعهدها متناسقة، فأيام الجامعة ذهبت بفنون الحقل، إلى هندسة خطوط نقل النفط التي ما اعوجت عن اتجاهي التصدير نحو الشمال أو الجنوب العراقيين.

كانت شعور النسوة مكشوفة ومنكوشة، وبعض ثيابهن ممزقة، الصمت هو الوحيد الذي كُنَّ يحافظن عليه من تعاليم الوالد المرحوم، فالعويل على الميت حرام، يُبعد ملائكة الرحمة، ويُخجل المتوفى أمام ملَكيه!

اقتربت أمي مني وقالت:

"يا ملاذي!"

لم تقلها لي سابقاً، لا أشك بعظيم حبها لي، لكنني فهمت وقتها أن أخي قد فارق الحياة فعلاً، ولم يبق في البيت رجل سواي!

اتضح المشهد أخيراً، ظن الجنود الأمريكيون أني قضيت وأخي برصاصهم، فحاولوا الاعتداء على النسوة، لكنهن قاومن، وساعدهن جيش الأطفال بعَضٍّ وركلٍ وخمشٍ، مما جعل رجال البحرية يعودون للغوص في بحر الرمال، فالوقت نهار، والنور يفضح كل مستور! على أن يعودوا ليلاً، لحماية النسوة من شر الزمان! هكذا فهمتْ منهم أختي الجامعية، التي حافظت على صمتها، فكان ذلك في مصلحتها ومصلحة الجميع.

كان شدُّ عصابة رأسي يؤلمني، وتأثير البنِّ قد تسرب من الضمادة عبر شراييني نحو مركز البركان، فاشتدت أعصابي، وزادها توتراً منظر بقايا دمي على رحى الطاحون الحجري الذي كان ما يزال يشع تحت شمس الأصيل المتسربة من ظل الدالية الخفيف، وكأنه يبزني ويتهمني بالخيانة!

خنت ماذا؟ الموت؟ هو الذي رفضني ونبذني، فمن يصدق أن سقوطي وثقل أخي فوقي على الرحى لم يسفر عن شر ميتة! حتى أن

الأمريكيِّن وهم أصحاب "المعرفة والقوة" اعترفوا بموتي وقال زعيمهم و هو يقهقه:
"قتلته حجارة بلاده!"

لكنه كذب، و ها أنذا قد نهضت إلى القبو أتفحص نتيجة تفتيشهم عن "أسلحة الدمار الشامل" في بقايا مزق أكياس القمح والدقيق والذرة المنثورة، وحطام الصناديق التي كانت تنتظر برتقال الموسم القادم!

صارت أوامري صارمة كحمى الدفاع عن العرض المستباح، وقد استباحوه باسم الحرية، فجمعَتِ النسوةُ، بقيادة صبيان أخي كل ما خفَّ حملُه وغلا ثمنُه.

هي نكبة و نكسة عندنا أيضاً، لكن لن يكون نزوحاً ولا هجرة، سيكون درساً لمن قد يتعلم الشرف في معهد القيم.

كنت قد سمعت عن تعذيبهم في"سجن أبوغريب" للمعتقلين، لا يفرقون فيه بين عسكري ينتزعون اعترافه أو فتاة يفجرون أنوثتها. لا رجل الدين الشيخ في المعتقل ولا امرأته يختلفان في العري والتنكيل وذهول الحبس.

خلال ساعات قليلة تركت النسوة القبر المغطى بالريحان وأثواباً شقتها حراب الحرية، وكيسَ بذار مسفوحاً في كل مكان.

"اللانيت"، أحد أحب سموم جرذان الحقل لديّ، وكنت أشفق أحياناً على صغار الفئران، والقطط أو الكلاب البرية التي تأكلها، فتموت قبل إكمال نهشاتها الأولى.

فتشت في المستودع عن علبة السمِّ فوجدتها،لم تخدشها حربة، ولا اخترقتها رصاصة.

فرحت كما لم أكن لأفرح أكثر، لو صرختْ بي ممرضةُ توليدِ زوجتي:
"صبي! ...صبي!"

كانت بعض المعلبات الأمريكية قد نثرها الجنود معونة "إنســانية" للنسوة بعد فقد رجالهن! على أمل تناول "بعضها فقط!" معهن لــيلاً، كما هتف اثنان لأختي الجامعية!

قبيل منتصف الليل، كانت الهدنة قد تأكدت بعد توقف القصف الجوي على حي الجولان القريب، لكن الدبابات وناقلات الجنود المصفحة لم تهدأ بحجة التنقل نحو بغداد شرقاً، وبما أن جميع الدروب تقود إلى بغداد فقد كان أحدها وسط بستان البرتقال!

أضحت أغصان البرتقال تئن وتصرخ بألم وهي تتكسر متأوهة تحت سلاسل المدرعات البغيضة، كان النسغ يسيل منها عائداً لعناق الأديم، فقد تنتج الأرضُ ذات يوم خزامى برحيق البرتقال، أو زهرَ دمٍ لا يذوي حتى تتحرر نسمات الهواء من ريح البارود ووهج الرصاص القناص السريع الذي قد لا يخطيء رأساً أو قلباً أوعورة!

انتهى إعداد الوليمة قبل الموعد المشؤوم. لم أكن أحب الطبخ وما تعودته يوماً، ربما لحرص النساء على شموخ رجالها، فقد تجلب لهن راحتهم فلاحين أقوياء يكملون مهام الزراعة والنسل.

دخل العساكر بمرح وكأنهم يدخلون بيوتهم. ياللصفاقة، كانت عيونهم تزرع نظرات شكٍّ وريبةٍ في جدران البيت، حتى أنني للحظة خفت انكشاف مخبئي، وفشل خطتي الجهنمية للفتك بهم دون إطلاق رصاصة، هم كجرذان الحقل هنا، وأنا ما اعتدت قتل غير الجرذان، فليسمح لي إذن مخرجو هوليوود استبدال فنون مبارزات رعاة البقر، بممارسة "إرهابي" عليهم.

استعادوا سكينتهم خلال لحظات، وزال عنهم الخوف أو التوجس من عدو ما، فالكبر و البصاق سمتان بدتا ظاهرتين لي منهم في سلام الأفلام من قبل وفي حرب العراق الآن.

تجولوا في بعض الأرجاء وهم يصرخون بحثاً عن النساء، و الشبق الدامي يعصر أحشاءهم، فما شعروا بالسم الذي أدخلته من خلال ثقب دقيق في علب الـ(هوتدوغ)والـ(همبرغر).

قال أحدهم:

"لم ألتق عذراء من قبل، أين يختبئن بنات الـ....."

رد آخر:

"أحشائي تتمزق، قد يكون الطعام مسموما"
ارتعدتُ و سرَتْ قشعريرة في جسدي، وكأن السم قد سرى فيه أيضاً.
"مجرم أنا إذن"
لم يصغ إليه أحد فالكل منهمك بالطعام المعلب والمجهز على الطريقة الفدائية.
خمس دقائق أو أقل كانت بالنسبة لي دهراً كاملاً، كانوا يتساقطون خلالها كالذباب حول مائدة الجنس الموعودة، أما الصمت في الخارج فقد بشَّر بهدوء لا يعكره سوى تكتكات الديك البلدي الذي ارتاب بأمري مع ضيوف من نوع غريب.
فتحت مصراع النافذة بهدوء، وقفزت خارجاً في حلكة ليل غاب قمره، درت حول البيت لأطمئن أخي في قبره، لكني فوجئت بالذخيرة المزروعة حول البيت بكل عناية فاكتشفت هدفهم الأخير: نسف البيت بعد رحيلهم!
الفتيل طويل طويل ويقود إلى طرف البستان من جهة بغداد، همست بغيظ وحنق شديدين:
" جبناء هم مهما تعددت نجوم علَمِهم، ومهما شمخت هدية استقلالهم الفرنسية*"
فهل سمعني كتابُ تاريخ أو روحُ أخي التي تنتظر مني الثأر كما باقي نساء العشيرة!
نسمة هواء سرحت صوبي من جهة دجلة، قبلتني وما اعتدت القبل، دخلتِ البيتَ لتفتح لي نافذة الوداع، وأنا أنتظر اللحظة المناسبة.
سأشعل الفتيل بنفسي ولن أحرمهم وهم موتى لذة دفن آثار جريمتهم المفترضة، لكن التعثر بلغم زرعوه قبل دخولهم أو بشُحْنةٍ ناسفةٍ قد يودي بي قبلهم، سأنتظر تباشير الصباح الأولى... لا بل سأشعل كل شيء فالدبابة قريبة وكذا المصفَّحة. "يا لها من وليمة!"
سأراقب اللهب عن بعد، وربما من فوق ذلك السطح حيث كان القناص يراقب أخي العائدَ إلى البيت من الفلوجة،عندئذ قد أرقص

أوأغني على جراحي كما الحمامة المذبوحة، لكني لن أموت قبل تفجير الصمت بدويٍّ يغسل بعض عار، وسأعود بكيس بذار جديد ، فما زال الحقل ينتظر.

(*) تمثال الحرية كان هدية فرنسا بمناسبة استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

جمال نوري أحمد .العراق

(... فلما نما الخبر إلى أسماع ابنة صاحب الوظيفة الكبيرة، إستبد بها الفضول وقررت أن تنزل بنفسها، تجد في البحث عن سيرة هذا الرجل القابع في التنور منذ سنين بعيدة، وصممت في نفسها أن تخلص والدته العجوز من معاناتها).

مرر أصابعه النحيفة على جبينه وحاول أن يصفف الشعر المتطاير على صلعة عريضة.. اقترب الصغار أكثر وازداد إلحاحهم وطلبوا منه أن يواصل حكايته.

(وبعد جهد جهيد عثرت الفتاة على بيت الكسول "مسعود" فطرقت الباب ولبثت تنتظر.. بعد هنيهة انفرج الباب عن وجه ذابل لعجوز تجاوزت الستين بقليل.. قالت: أهذا بيت الكسول "مسعود" ولم تستطع العجوز أن تصمد إزاء حديث الفتاة العذب ووعودها المغرية فأدخلتها إلى بيتها وجعلت تنصت إلى حديثها وخططها لإنقاذ المسكين مسعود وهي التي يأست من كل محاولة لإنقاذه).

تنحنح الرجل وأخرج سيكارة أخرى، وشرع يمج الدخان بضجر، لم يكن راغبا في سرد أية حكاية، إلا انه لم يستطع التخلص من محاصرة الصغار وعطشهم الأزلي لحكايات جديدة عن سيرة الجنيات والسعالي.

(وكان أول سؤال عن ألذ الأطعمة وأقربها إلى نفسه فأسرت إليها العجوز قائلة: الزبيب يابنتي.. وما كادت أن تنهي كلامها حتى هرعت البنت إلى السوق المجاورة لتجلب معها كيسا مليئا بالزبيب).

قاطعته مُنى الصغيرة: لماذا لم تجلب لنا بعض الزبيب يا بابــا..
إستوى الرجل في جلسته ثم أردف قائلا: سأفعل ذلك فيما بعد..

(وشرعت الفتاة تضع كومة بعد كومة، من جدار التنــور حتــى باب البيت، ثم أخبرت العجوز أن تقدم له الزاد وأن تشــعره بوجــود الزبيب.. وبعد تردد طويل خرج الرجل محني القامة يلتهم كومة بعد أخرى وما أن اقترب من الباب حتى أحس بهلــع شــديد فارتعــدت فرائصه ولكنه قبل أن يفكر بالعودة داهمته أربع إياد دفعته إلى خارج الدار وأغلق الباب بالرتاج).

وطلب الرجل أن يعدوا له الشاي، ليتسنى له مواصــلة الحكايــة فأسرعت البنت الكبرى إلى المطبخ بينما كان الصغار يتحلقون حول الرجل الذي بدا الآن أكثر تعباً وضجراً.

(قيل أن الرجل ظل يصرخ ويستنجد، حيث كان القمر بدرا، ولم يستطع أحد في تلك الليلة أن يمد يد العون إلى المسكين "مسعود").

قاطعته منى.. وهي توشك أن تبكي: كيف طردته أمه؟ ألمْ تخش عليه من القطط والكلاب؟ ورد الرجل: لكنه كان رجلا يا ابنتي.

حاول أن يرجئ الحكاية إلى المساء، لكنه واجه سداً منيعاً مــن الاعتراضات والتوسل.

(كانت تلك الليلة أطول ليلة في حياة المسكين مسعود، وقيل إنــه فقد صوته لأكثر من أسبوع لكثرة ما صرخ وندب حظــه العــاثر.. وفي الصباح شاهد الناس يبكرون بالذهاب إلى أعمالهم وبعــد ذلــك شاهد الأطفال يلعبون من دون وجل، فأنهض قامته ومضى يتهــادى إلى قلب المدينة التي كانت عصية على فهم هذا الرجل الطارئ).

سردت لي ذلك أمي.. وقالت: (إنه لما وجد نفسه فــي زحمــة السوق نسي شيئا من هلعه فاستمرأ الزحام ودرج مثل عربة خربــة في أزقة السوق الضيقة.. ومن دون أن يدري صاح به رجل كهــل: أنت أيها الشاب.. أنت يا ذا القامة المنحنية.. هلا جئت إلي.. وامتثل الشاب ووافق فورا على أول عرض للعمل، فمضيا سوية إلى بيــت الكهل وطلب منه ان يخرج صندوقين من سرداب في حوش الــدار، ففعل فوجد في الأول ذهبا وفي الآخر فضة.. بعــد ساعات أنهــى

تنظيف الصندوقين ومحتوياتهما ثم أعادهما إلى مكانيهمـــا.. شـــكره الكهل وأعطاه ديناراً من الذهب، وسعد أيما سعادة ومضى لا يلـــوي على شئ).

رشف الشاي ومنح نفسه بعض الوقت ليسترد أنفاســـه، وكانـــت العيون تتطلع إليه من كل صوب تنتظر مصيره.. تحـــرك الصـــغار بجزع مستعرضين رغبتهم في إنهاء الحكاية.

(وفي اليوم الثاني وبينما كان يسير في السوق وجد مناديا يصيح بأعلى صوته: بيت معروض للبيع.. وعندما اقتـــرب مـــن المنـــادي واستفسر عن صاحب البيت علم أنه يعود إلـــى ذات الكهـــل الـــذي استأجره يوم أمس وقد وافته المنية أسرع مسعود إلى صاحب دكـــان تعرف عليه، وطلب منه أن يقرضه عشرة دنانير من الذهب ليستطيع شراء البيت.. وفي المساء كان يعد نقوده من دنانير الذهب والفضة.. أرسل الصندوقين إلى أمه ومضى مع قافلة قصـــدت الشـــام، وفـــي منتصف الطريق)..

تصاعدت الجلبة وتفشى الاضطراب عندما بدا الرجل ينقر على رأسه وكأنه أضاع تكملة الحكاية.. قالت هيفاء: أعتقـــد أنـــه نســـي الحكاية.. ثم أردفت ليلى: لم يكن هكذا قبل عشـــر ســـنين.. تنحـــنح الرجل وقال: أمهلوني بعض الوقت..

(وفي منتصف الطريق.. توقفت القافلة قرب بئر طلبا للماء، وتم اختياره لينزل إلى جوف البئر لكي يملأ الجرار.. وعندما هبط إلـــى الأسفل فاجأه رجل ذو طلعة مشرقة.. نادى عليه وأدخله إلى غرفـــة واسعة تعجب مسعود لهول ما رأى.. فقـــد أراه الرجـــل امـــرأتين،، إحداهما سوداء عابسة قذرة والأخرى بيضاء جميلة مذهلـــة، وظـــل يتملى في الاثنين بين ذهوله وفزعه.. وعندما استرد أنفاسه قال لـــه الرجل: أيهما أفضل، البيضاء أم السوداء؟ بقي المحظـــوظ مبهـــوراً مأخوذاً بالموقف ولم يحر جواباً.. ماذا قال؟!).

هتفت ليلى: لقد نسي الحكاية.. لا شك في ذلك.. حاول الأب أن يداري خجله فَهَمَّ بالنهوض رغم الدعوات الساخنة لتكملة الحكاية إلا انه كان قد نسي الحكاية تماما وأرجأ ذلك إلى المساء بعـــد أن يتأكـــد

من تكملتها من جدتهم.. وحين تفرق الأطفال ارتدى الرجل دشداشته وجعل يدرج صوب بيت أمه ناشداً لديها خلاصه وبقية الحكاية التـــي نسيها.. جلس قربها وتردد قليلا قبل أن يسألها: أظنك تذكرين حكاية المسكين مسعود؟ فأجابته بنعم أذكرها جيدا..

صمت لوهلة ثم أضاف بخجل:

– احكيها لي يا أمي..

وفي لجة حيرتها مضت تتحدث من البداية تفاصيل حكاية تعبت من سردها لأطفالها وأحفادها.. بينما كان الرجل متكئا على الأريكـــة بانتظار ما تبقى من الحكاية.. وبعد فترة قالت (وعندما وصلت القافلة الى البئر أرادوا أن يرتووا هم ودوابهم من الماء فتم اختياره لنـــزول البئر وعندما هم بالنزول).

انتبهت العجوز إلى الشخير المتصاعد من الرجل النـــائم علـــى الأريكة .. إبتسمت ثم واصلت سرد الحكاية حتى نهايتها..

المحتوى

القصص الفائزة

الجائزة الخاصة

قصص متميزة